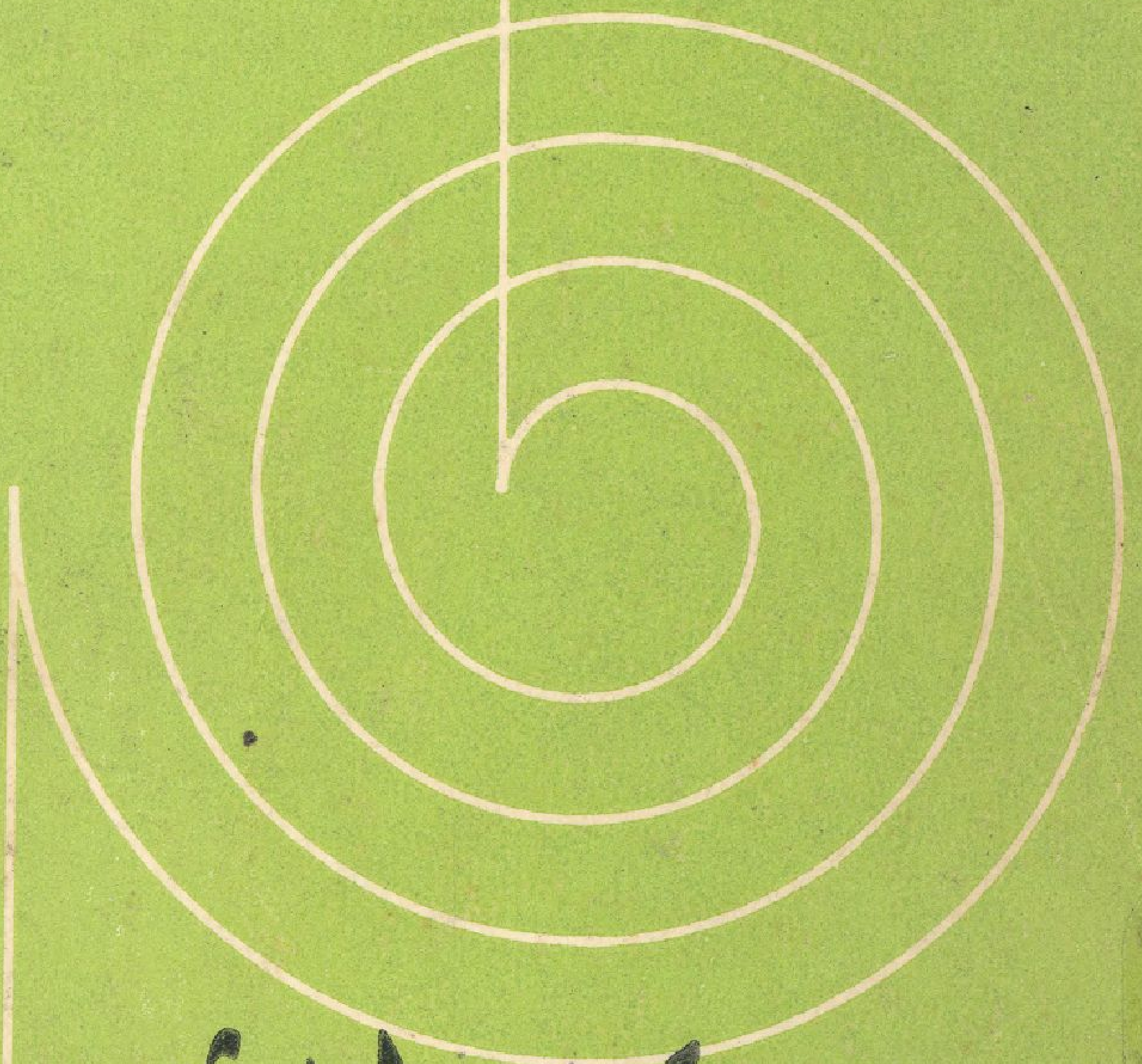


سارتر والماركسية



جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

سارتر والماركسية

الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ، ١٩٦٤

جورج طرابيشي

سارتر والماركسية

منشورات دار الطليعة - بيروت

إلى هنرييت

منطلق

كنا في سن الحماسة العاطفية ، في السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة ، حين دخلنا المعترك السياسي واشتركنا في أول مظاهرة سياسية (طلابية) لنا . كنا نعرف اين هي طريق الخيانة ، ولكننا لم نكن نعرف اين هي طريق السلامة الوطنية . كنا نعرف ان الحكم القائم لا يمت بأي صلة الى الشعب ، لكننا لم نكن نعرف بأي حكم نستبدله .

وكانت سورية آنذاك خارجة من حكم دكتاتوري ، حكم الشيشكلي ، وكان هناك ظاهر من ديموقراطية وصراع بين الأحزاب شديد . ولست أدري كيف اصبحنا اشتراكيين، وكل ما أعرفه انني وجدنا انفسنا على حين غرة مؤمنين بالاشتراكية ، او بالأحرى كارهين لانقسام المجتمع الى طبقتين : غنية وفقيرة . هل طالعنا الكتب الاشتراكية ، هل قرأنا المؤلفين الاشتراكيين؟ لا اعتقد ان شيئاً من هذا قد حدث ، باستثناء بعض المقالات

الصحفية السريعة . لكن حب العدالة جارف عميق دوماً لدى المراهق .

وكان حس العدالة هذا هو وحده الدافع الينا لنكون اشتراكيين. وباختصار لقد كنا متمردين ولم نكن ثوريين . ولم نتردد طويلاً في اختيار طريقنا الاشتراكي . كان علينا إما ان ننتمي الى الحزب الشيوعي وإما الى حزب « البعث *العربي الاشتراكي »، الحزب الاشتراكي الوحيد الى جانب الحزب* الشيوعي . واقول لم نتردد طويلاً ، لأننا اخترنا فوراً الحزب الثاني . لقد كنا بحاجة إلى حزب يرفع شعار الثورة ، حزب يعرف كيف يحتضن تمردنا ويحوله الى ثورة . والحال ان الثورة لم تكن من شعارات الحزب الشيوعي السوري. لقد كانت اقصى مطاليبه الديمقراطية والسلم العالمي والصداقة بين الشعوب وبخاصة الاتحاد السوفياتي. ولم تكن مثل هذه الشعارات لتغرينا. انها شعارات بعيدة عن جو الثورة الذي كنا نحتاج اليه ، *والذي يمكن ان يحتضن تمردنا على طبقتنا البورجوازية . ثم ان* ارتباطاتنا البورجوازية كانت تصور لنا الحزب الشيوعي على انه « بعبع » ، له طقوسه السرية التي اشبه ما تكون بطقوس بعض البدع الدينية السرية . وكانت كل معلوماتنا عنه انه حزب العنف المطلق ، ولم يكن تمردنا المثالي ليسمح لنا بتقبل مبدأ العنف .

وسرنا في طريقنا القومي الاشتراكي . وحين كنا نسأل عن اشتراكيتنا ، كنا نجيب بأنها اشتراكية قومية ، اشتراكية

عربية ، لا اشتراكية عالمية . وكنا اذا ما طلب الينـا ان نفرق بينها وبـين اشتراكية الشيوعيين ، كنا نجيب : اشتراكيتنا تؤمن بالروح كما تؤمن بالمادة ، وكنا نفهم الروحانية على انها تلك القيم المثالية التي تصبو اليها المراهقة ؛ واشتراكيتنا لجميع الشعب لا للعمال وحدهم ، وكنـا نظن ان الطبقية تنـاقض القومية والوحدة العربية ؛ واشتراكيتنا تؤمن بالملكيـة الصغيرة وبحق الارث ، لاعتقادنا ان الملكيـة هي « طبيعة » في الانسان . فكيف ننـكر الملكية إنكاراً قـاطعاً ؟ ألا يعني هذا اساءة فهم « طبيعة » الانسان ؟ .

لكننا كنا نشعر في الوقت نفسه ان الأرض غير ثابتـة تحت أقدامنا . كنا نشعر اننـا بدون نظرية . وكانت النظريـة الاشتراكية الوحيدة الممكنة آنـذاك توحي إلينا بالخوف : الماركسية. وحين اخذنا بالقراءة، لم نقرأ لكي نكون اشتراكيين فعلاً ، بل لنستطيع الوقوف في وجـه الماركسية المرعبة . وكنا نتبنى كل رأي نجده صالحـاً لأن يقف في وجهها . لكننا كنا نريد في الوقت نفسه ان نكون وان نظل يساريـين ، لكنها يسارية خالية من كل صبغة مـاركسية . ولم نترك كتاباً ينقد الماركسية دون ان نطالعه (بقدر ما كانت الكتب العربية العقائدية متوافرة) . لكننا في الوقت نفسه لم نطالع أي كتاب ماركسي . كنا نفهم الماركسية من خـلال ما يكتب عنها ، لا من خلالها هي . وكنـا نؤمن بأن الاقتصاد عامـل أساسي في التاريخ ، لكننا كنا ننتقد الماركسيين قـائلين : ولكن اين هو

دور الادب والفــن والروح ؟ وكيف تحرصون على النــاحية الاقتصادية ، وتهملون النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية ؟

قرف عميق من اليمين ، وخوف مبهم من اليسار الماركسي : كنا واقفين على خط رفيـع ، على النقطــة التي تفصل الخيط الأبيض من الخيط الأسود . لكنهــا كانت نقطة متحركة . ومتحركة دوماً الى اليسار اكثر فأكثر .

ولم نتورع ونحن في الثامنة عشرةعن ان نتهم الماركسية بأنها « ميتافيزيقية » : فهل « الديالكتيك» في النهاية إلا ميتافيزيقا؟ ولقد كان غريباً ان نتهم – نحن الميتافيزيقيين عن غير علم منــا– الماركسية بأنها ميتافيزيقية . ذلك لأننا كنا قد بدأنا في الحقيقة نقرف ونشمئز من كل مــا هو ميتافيزيقي ، لأننــا عرفنا ان الميتافيزيقا والغيبيات هي من جانب اليمين . وكنا حريصين كما قلت على ان نظل يساريين . ولقد طمأنتنا هذه الفكرة مــدة طويلة . اننا يساريون لأننــا غير ميتافيزيقيين ، بل نحن أكثر يسارية من الماركسيين ، لأنهم لم يستطيعوا ان يحموا أنفسهم من الوقوع في حبائل الميتافيزيقا التي يدعون انهم يحاربونها .

لكن جميـع حججنا هذه كانت قد بدأت تتهافت من نفسها. ولقد كان لا بــد ان تتهافت كلما تعمقت ثقافتنا . فقد رحنا نكتشف ان الماركسية كما نتصورها ليست هي المــاركسية الحقيقية . وهكذا كنا نجد انفسنا مرغمين دومــاً من جديد على اختراع انتقادات جدية تستطيـع ان تقف في وجه المــاركسية المتكشف لنا دوماً تحت مظهر جديد .

لكن من خلال هذا الصراع كله كنا ما نزال على حرصنا بأن نكون يساريين. وكان هذا الحرص هو الذي يدفعنا دوماً ودوماً الى المزيد من التثقف الاشتراكي . لكن لم نستطع ان نتخلص من عقدتنا ازاء الماركسية : فهي مـــا تزال تخيفنا . ولو كنا قرأنا ماركس لعرفنا سر هــذا الخوف : فقد كنا في الحقيقة ما نزال نعيش ونفكر في اطار « العقيدة الرسمية » للطبقة البورجوازية، رغماً عن كل ادعاءاتنا اليسارية . وإذا مـــا فهمنا ان « العقيدة الرسمية » هي ذلــك « البنيان الفوقي الحقوقي والسياسي » الذي يعبر عن علاقات الإنتاج في مرحلة معينة ، وإذا فهمنا ان القوى المنتجة كانت قد دخلت آنــذاك في صراع مع علاقات الإنتاج ومع الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج ، ادركنا سر ذلك التمزق الذي كنا نعيش فيه . فالصراع بين القوى المنتجة وبين علاقات الإنتاج الرأسمالية والاقطاعية يؤدي الى تزعزع العقيدة الرسمية البورجوازية ، ويوّلد لدى البورجوازيين الصغار – أمثالنـا – احساساً بالتمزق : لقد كنا نرفض علاقات الإنتاج الرأسمالية ، لكننا لم نستطع ان نتبنى بعــد عقيدة الطبقة المنتجة . كنا لا نريد ان نقف الى جانب الرأسمالية والاقطاع، لكننا لم نكن في الوقت نفسه من الطبقة العاملة. ولهذا كان علينا ان نتخبط طويلاً في اطار « العقيدة الرسمية» و « الافكار السائدة » للبورجوازية قبل ان نستطيع ان نشق طريقنـا بوضوح وثقة الى العقيدة المناوئة : عقيدة الطبقة العاملة .

ومن خلال هذا التخبط – المتقدم دوماً نحو عقيــدة الطبقة

الكادحة – أخذنا نتشرب بعض المبادىء الماركسية . ولقد كان ذلك في البدايـــة بشكل سلبي محض . أعني بذلك اننا رحنا نتبنى من الماركسية انتقاداتها الهادمة للفكر البورجوازي . وصرنا نقول ان الماركسية يمكن ان تفيدنا في الهدم لا في البناء ، هدم النظريات اليمينية. اما البناء اليساري ، فقد كنا نتصور ان مسؤوليته تقع على عاتقنا . لكننا لم نكن نبني شيئاً في الواقع .

ومن خلال هذا الجو ، هذا الحذر والتحرس من الماركسية اكتشفنا سارتر. لقد وجدنا فيه ذلـك الفكر النقاد الذي يسدد ضربات صائبة الى الماركسية، دون ان يقع مع ذلك في أحابيك اليمين . وجدنا فيه ذلك اليساري الذي نطمح الى ان نكونه ، اليساري الذي يحافظ على يساريته دون ان يكون شيوعياً ، بل دون ان يكون ماركسياً ، على ما خيل الينا في البدء . ولقـد كان فرحنا بهـذا الاكتشاف كبيراً ، لأنه استطاع ان يثبت فينا الاطمئنان لبعض الوقت أمام القلق الذي كانت تحاصرنا به الماركسية . ومما شجعنا على هـذا الفهم الخاطىء الحملات العنيفة التي كان يشنها الشيوعيون الماركسيون عليه .

اقول : فهمنا سارتر في البداية فهماً خاطئاً . ذلـــك اننا لم نقرأه هو ، بل قرأنا لديه مـــا كنا نريد ان نقرأه ، مدفوعين بذعرنا من الماركسية ، وبرواسب العقيدة الرسمية للبورجوازية. لكن قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ ثم انفصالهـا ، والازمات التي عاشها اليسار العربي،وبشكل خاص حزب البعث العربي الاشتراكي ، اثناء الوحدة واثناء الانفصال ، كان لا بـد

أن تنزع القناع عن اعيننا ، هذا اذا كنا ما نزال نريد ان نكون اشتراكيين ويساريين . وادركنا الحقيقة الصارخة : إن علينا ان نعيد النظر في كل شيء ، في افكارنا وآرائنا وعواطفنا ومطالعاتنا . وشعرنا ان فترة المراهقة السياسية قد انتهت ، شعرنا ان علينا ان ننتقل من التمرد الى الثورة .

وهكذا اقبلنا من جديد على المطالعة : قرأنا من جديد مقالات قادة الحزب وكتبهم ، ونهلنا من الكتب الماركسية . وكان احساسنا المتوتر ابداً هو اننا لو كنا ثوريين واشتراكيين حقيقيين لما فشلت الوحدة ، إذ كنا أقمناها على اسس موضوعية ، لا على مجرد اسس عاطفية .

والدراسة التي أقدمها اليوم للقارىء العربي – وافضل ان أقول للثوري العربي – هي حصيلة اعادة النظر تلك . لكن سأقتصر هنا على دراسة علاقة الوجودية السارترية بالماركسية ، آملاً أن اتمكن في القريب العاجل من اصدار دراسة اخرى عن « الاشتراكية العربية والماركسية » .

قد يقول قائل : وهل من المهم كثيراً بالنسبة للقضية العربية كتابة مثل هذه الدراسة ؟ هنا سأجيب : أجل لأن كل ثوري في اعتقادي بحاجة الى نظرية . والحال أن الثورة هي ممارسة يومية على ضوء نظرية ما . والنظرية الثورية الوحيدة الممكنة اليوم هي النظرية الماركسية . لكن هذا لا يعني البتة أن نفهم الماركسية كما يريد لنا الماركسيون « الأورثوذكسيون » أن نفهمها . إن على الثوري العربي أن يعيد اليوم اكتشاف الماركسية ،

الماركسية الحية ، لا تلك الماركسية الجامدة الدوغمائية التي أقفل الماركسيون باب الاجتهاد فيها . ومن الحسنات الأولى للفكر الوجودي السارتري أنه حقق إعادة الاكتشاف هذه .

ولهذا فإن دراسة كهذه الدراسة « سارتر والماركسية » تصيب عصفورين بحجر واحد كما يقال . فمن خلالها نستطيع لا أن نعيد اكتشاف الماركسية وحدها فحسب ، بل أن نعيد أيضاً اكتشاف الفكر السارتري الذي أسأنا فهمه في البداية .

هذا ما آمل أن أكون قد حققته في الصفحات التاليات .

كانون الثاني ١٩٦٣ جورج طرابيشي

خصُومَـة الوُجُوديَّـة

مهما كان رأينا في الوجودية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أنها أثارت خصومـة كبيرة ، وجدلاً كثيراً . ولعـل الفيلسوف الوجودي ، الزميل لسارتر ، موريس ميرلو بونتي ، هو أول من تكلم عن « خصومة الوجودية » في مقال له ظهر عـام ١٩٤٥ تحت العنوان نفسه . ويليه في ذلك الناقد الأدبي روبير كامبيل في دراسته المعنونـة « جان بول سارتر أو الأدب الفلسفي » ، الذي ختم دراسته بفصل عن « خصومة الوجودية » . ويتبعها الناقـد الفلسفي الماركسي « هنري موجان » الذي خصص هو الآخر فصلين من كتابـه «الأسرة المقدسة الوجودية » لتمحيص « خصومة الوجودية » . وبالطبع إن كلاً من هؤلاء الثلاثة ينظر الى هذه الخصومة بمنظاره الخـاص : فبينما يحاول ميرلو بونتي أن يحدد الوجوديـة من خـلال التهجمات التي شنها الشيوعيون والكاثوليك على كتاب « الوجود والعـدم » فيقول : « صحف

اليسار ومجلاته تتلقى سيلاً من المقالات النقدية التي تنشرها أو لا تنشرهـــا . والحرمانات الكنائسية تتدفق من اليمين ... وبينا يتهم الكاثوليك سارتر بالمادية ، يأخذ عليه مـــاركسي كهنري لوفيفر انه متـأثر بالمثالية [١] » . ونجد كامبيل يحاول أن يأخذ لهجة الناقد الموضوعي ، فهو كما يقول في مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه لا يريد أن يعلي أو أن يحط من شأن سارتر إنما يريد فقط أن « يقدمه » ، وهكذا يسجل مختلف الانتقادات الموجهة الى سارتر من جميع الجهـــات : من الكاثوليك ومن الماركسيين ومن الديكارتيين العقليين ، ويقول : « شن النقد على حين غرة حرباً شاملة ضده (ضد سارتر) . والتحالف عـــالمي : فالكاثوليكي يمشي جنباً الى جنب مع الملحد، والماركسي مع المتزن التفكير، والعقلاني البارد مع المرأة الشهوانية ، واستاذ السوربون مـــع المتخنث، واليهودي مع اللاسامي ، والأخلاقي مع المتهتك[٢] » .

أما أغرب هذه المواقف فهو بلا ريب موقف هنري موجان الماركسي . إنه يقول بالحرف الواحد إنه يعتقد أن « خصومة الوجودية أهم من الوجوديـــة نفسها [٣] » . لذلك فهو حـــين يعترف بأن الكاثوليك يهـاجمون سارتر ، فهذا لغرض في نفس يعقوب . إنه يزعم أن الخصومة بين الوجوديين والكاثوليك هي خصومة مصطنعة، وكاذبة ، لإبعاد المادية التاريخية، من الميدان.

---

١ ـ ميرلو بونتي « المعنى واللامعنى » مقالة « خصومة الوجودية » .

٢ ـ روبير كامبيل « جان بول سارتر » ص ٢٨٧ .

٣ ـ هنري موجان « الأسرة المقدسة الوجودية » ص ١٦٣ .

ذلك لأن الكاثوليكية والوجودية في رأيه مذهبان مثاليان . ومن مصلحة المذاهب المثالية أن تثير الحرب فيما بينها ، بشرط أن تكون حرباً بدون نتيجة ، كيما يعتقد الناس أن المادية التاريخية « جسم غريب عن الفلسفة [1] » . وعلى هذا ، فإن مثل هذه الحرب مهما تفاقمت ، فإن هدفها الأول والأخير هو محاربة المادية التاريخية : « إن المفكرين الكاثوليك يهاجمون بعنف سارتر والفريق الوجودي . ولا يرد سارتر والفريق الوجودي على هذه التهجمات ، بل يهاجمون بدورهم المادية الجدلية والمفكرين الماركسيين . وكيما نحدد كلامنا بشكل أوضح نقول : إن المفكرين الإيمانيين يزعمون أن المادية الماركسية أصبحت بالية ، ويهاجمون الوجودية باعتبارها ، في رأيهم ، الشكل الحديث للمادية . ويؤكد الوجوديون بدورهم أنهم ليسوا ماديين ، ويهاجمون الماركسية لأن الماركسية مادية ، ويطلبون منها أن تتخلى عن ماديتها لأن المادية ، كما يقولون ، قد تجووزت [2] » .

وإذا ما غضضنا الطرف عن التناقض الجلي الذي أوقع فيه موجان نفسه حين ادعى في البداية أن المثاليين ، من إيمانيين ووجوديين ، يصطنعون المعارك فيما بينهم اصطناعاً ، ثم عاد فزعم أن الفريق الوجودي لا يدخل في حرب مع الايمانيين ، أقول : إذا غضضنا الطرف عن هذا التناقض الظاهر ، فإننا لا نستطيع إلا

١ - المصدر نفسه - ص ١٨ .
٢ - المصدر نفسه - ص ١٦٣ .

أن نطلب من موجان الدليل على صحة ما يقول من أن الخصومة مصطنعة . وإليكم الدليل الذي اكتشفه موجان: إن سارتر أولاً لا يغضب إذا ما تهجم عليـه الايمانيون ، لكنه يزبد ويرعد إذا ما تعرض إليه الماركسيون ولو بلطف كبير ، وهو ثانياً كاذب إذ يدعي عدم الايمان ، وإلحـاده ليس إلا مناورة لدفع الشباب الى أحضان العقيدة الايمـانية . يقول موجان : « حين يهاجم المفكرون الكاثوليك الوجودية ، فإن سارتر لا يرد ابداً . إنـه حساس للغاية بأبسط خدش ماركسي ، لكنه غـير حساس البتة بالحجر الذي يرميه به دب المذهب الايماني [1] » .

وأما ايمانية سارتر فهي جلية في كونـه يتبنى « المواقف الدينية المتطرفـة من امثال مواقف كيير كغارد [2] » . واكبر دليل على ذلك تغير موقف الكاثوليك منـه ، وتقربهم منه ، كما فعل ذلـك ايمانوئيل مونييه في كتابه « مدخـل الى المذاهب الوجودية [3] » .

اما ان « الايمانيين » اخذوا بالتقرب من سارتر ، فهذا غير معقول البتة . والدليل الذي يعتقد موجان انه قد وجد فيـه ضالته ، واعني به كتاب مونييه الكاثوليكي ، فـإن القارىء يستطيع بكل بساطة إذا ما قرأ هذا الكتاب ان يدرك ان سارتر مظلوم فيه الى أبعد الحدود ، وأن مكانـه في « شجرة

---

١ ـ المصدر نفسه ـ ص ٢١ .

٢ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٦٧ .

٣ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٦٩ .

الوجودية » التي رسمها مونييه لا تـكاد تكون له اهمية . بل ان المهمة التي اخذها مونييه على عاتقه في كتابـه المذكور هي ان يجرد الوجوديـة الاصيلة من كل الشوائب الغريبة التي دخلتها ، وعلى وجـه التحديد مما يسميه « لا وجوديـة » سارتر ، كما يحصرها فقط في سورين كيير كغـارد وغبرييل مارسيل بشكل خاص[1] .

ثم كيف نستطيع ان نقول ان الوجودية السارترية تتبنى « المواقف الدينية المتطرفة » ما دام سارتر يعلن بكل صراحة : « حـين نتكلم عن الهجران ، فإننا نقصد بذلك فقط ان الله غير موجود وانه ينبغي ان نستخلص من ذلك النتائج الى مداها الاقصى[2] » .

امـا ان سارتر لا يرد على الايمانيين حين يهاجمونه ، ويرد على أي نقد ماركسي مهما كان خفيفاً ، فهذا أولاً غير صحيح ، لأنه لا يفعل شيئاً في كل ما يكتبه الا ان يحارب اليمين. ومسرحيته « الذباب » شاهد لاذع على ذلك ، وهذا ثانياً ، على فرض انـه صحيح ، مفهوم ، ذلك ان سارتر يعلق من الاهمية على انتقادات الماركسيين أكثر بكثير مما يعلقه على الانتقادات اليمينية. فهو قد غسل يده من اليمين وانتهى ، وحجج المثاليين يعرفها مسبقاً ولن يضيع الوقت في الرد عليها. وبالمقابل ، فإنه لا يستطيع ان يغض

---

١ ـ سيصدر هذا الكتاب قريباً من ترجمة المؤلف .

٢ ـ « الوجودية مذهب انساني » ـ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

النظر عن انتقادات الماركسيين، لا لأنه يريد هدم الماركسية، او المادية التاريخية ، بل على العكس من ذلك ، لأنه يريد ان يكون ماركسياً ، ولأنه يريد إحياء الماركسية . واليساري يهتم دوماً بانتقادات اليساريين له أكثر مما يهتم بانتقادات اليمين .

إلى الآن نكون قد تكلمنا عن ظاهر « خصومة الوجودية » . لكن يحق للقارىء ان يتساءل عن مضمون هذه الخصومة ، ويحق له بشكل خاص ان يتساءل ، ما دامت دراستنا تريد ان تعالج علاقة السارترية بالوجودية ، عن ماهية الانتقادات الماركسية ، وعلى وجه التحديد، عن موقف الماركسيين من سارتر.

والواقع ان المنهج الجدلي يفرض علينا ههنا نفسه : فالموقف الوجودي لا يتحدد تحديداً مطلقاً خارجاً عن حدود الزمان والمكان ، بل هو يتحدد قبل كل شيء ، وكما لاحظ ذلك ميرلوبونتي وسارتر نفسه ، بموقف خصمي الوجودية : المثاليين والماركسيين . وعلى هذا فإننا نعتقد أن من المفيد ان نسجل فيما يلي بعضاً من انتقادات خصوم الوجودية .

انتقادات المثاليين :

كتبت صحيفة « الصليب » في عددها الصادر في ٣ حزيران ١٩٤٥ ، معلقة على دراسة سارتر « الكينونة والعدم » ، محذرة من خطر « أخطر من مذهب القرن الثامن عشر العقلي ، ومن مذهب القرن التاسع عشر الوضعي[1] » . وتكتب

١ ـ نقلاً عن ميرلوبونتي «المعنى واللامعنى» ـ ص ١٢٣ .

الآنسة ج . مرسييه ان سارتر قد « أطفأ الفكر[1] » في فلسفته الوجودية . ويتحدث غبرييل مارسيل ، الوجودي المسيحي ، عن « الخلفية المادية بشكل فج » للمذهب الوجودي[2] .

ويكتب ر . تروا فونتـــين ، وهو كاهن كاثوليكي : « ألف سارتر معظم كتبه في المقهى . والحال ماذا يمكن ان يكون انسان لم يبلغ الاربعين ومع ذلك يتردد على المقهى ؟ ... بدون بيت ، بدون أسرة ... لا اصدقاء ... والحب يفعله مـــع من يصادف من النساء[3] » . ويردد التهمة الأخيرة هـذه ناقد آخر هو بيير بوتانغ الذي لا يتورع عن اتهام سارتر بأن به مساً من جنون ، ولهذا اختار المقهى مركزاً دائماً له[4] .

الانتقادات الماركسية :

ليس غريباً ان يصب النقـاد المسيحيون لومهم على « فلسفة المقهى » باعتبـار ان « الحيـــاة العائليـة » لها قيمة كبيرة في نظرهم. لكن الغريب أن يتبنى الماركسيون انفسهم هذه التهمة. وهكذا وجدنا الناقد المـاركسي الفرنسي ج . كونيو يدعي في محاضرة له ألقاها عن ديكارت ، انه يريد ان يـــلزم اماكنهم

---

١ ـ « الدودة في الثمرة » . ص ٢٤٠ .
٢ ـ « هومو فياتور » ـ ص ٢٤٨ .
٣ ـ « اختيار جان بول سارتر » ـ ص ٥٠ .
٤ ـ « هل سارتر ممسوس ؟ » ـ ص ٢٩ .

« فلاسفة المقهى » الوجوديين الذين « يعتقدون انهم يستطيعون ان يحـــددوا الانسان ، بالتعارض مع الاشياء ، على انــه لا كينونــة[1] » . ترى لو كنا دوغمائيين كهنري موجان ، ولو كان علينــا ان نتبنى منطقه ، أما كان يجدر بنا ان نتكلم عن « مؤامرة» بــين الماركسيين والايمانيين لخنق الوجودية وللحكم عليها بأنها « جسم غريب عن الفلسفة » ؟

وبالأصل لسنا نحن أول من اكتشف الالتقاء العجيب بـــين الماركسيين والايمانيين ، فهذا ميرلوبونتي يشيد مقالته « خصومة الوجودية » كما رأينا على هذا الالتقاء . وهذا سارتر نفسه يتكلم في « محاورات في السياسة » عن « اللقاء غير المنتظر » بين اليمين والمفكرين المــاركسيين . ففي المحاورة الثانيــة التي أجراهـــا سارتر مع روسيه وروزنتال لشرح اهداف« التجمع الديموقراطي الثوري » ، يذكر روسيه ان السيدين بيير هرفيــه وجان كاناپا الماركسيين كتبا مقالين بمناسبة اضراب عمال المناجم بفرنسا عام ١٩٤٨ ، اتهما فيهما سارتر وجماعته بالتواطؤ مع الوزارة ومـــع اليمين ، في الوقت نفسه الذي كان فيـــه جاك سوستيل اليميني يتهمهم بالتواطؤ مع الشيوعيين . ويلاحظ سارتر : هكذا نجد « كلاً منهم يأخـــذ علينا اننا ، في الخفاء ، حليف خصمه ... فها نحن اذن شيوعيون سريون وديغوليون سريون ... عجباً : هذا كله في آن واحد ؟ هـــذا لأنهم يستخدمون جميعاً حجة

---

١ ـ نقلاً عن ميرلوبونتي « المعنى واللامعنى » ـ ص ٢٢٢ .

« الموضوعية » الشهيرة . يقول سوستيل : يقيناً ، انهم يردون تهمة كونهم شيوعيين . لكن نياتهم الذاتية قليلة الأهمية : انهم موضوعياً عملاء للحزب الشيوعي. ويقول هرفيه وكانابا: بالطبع، ان روسيه وسارتر يزعمان انهما يساريان . لكن اي اهمية لما يزعمانه : انهما موضوعيـاً رائدان لـ « تجمع الشعب الفرنسي » (حزب ديغول)[1] » .

إن موضوعية هرفيه تنقض موضوعية سوستيل، وموضوعية هـذا تنقض موضوعية ذاك . ومن خـلال هاتين الموضوعيتين المتناقضتين ، تبرز جدليـاً موضوعية موقف سارتر واصحابه . وهذا ما يلاحظه سارتر حـين يقول : « إن التهجمات المتناقضة تصنع موضوعية « التجمع الديموقراطي الثوري[2] ».

ولنستمع الآن الى بعض انتقادات الماركسيين مما جمعه روبير كامبيل في فصله عن « خصومة الوجودية » : « إذا ما رجعنا الى الصحافة الشيوعية، وجدناها تصم سارتر بنفس الصفات التي تلصقها المادية الجدلية احياناً بالمتحمسين للحياة الروحية ، مـع اضافة المزيد من السم اليها : انها تصف سارتر بأنه «اديب كاذب الالتزام » وبأنه « فيلسوف القلق أمام الثورة » وبأنه « انسان يتخبط في التناقضات الرأسمالية » وبأنه« مثقف متعفن » وبأنه « إنتان البورجوازية المنحطة » و « زعيم كل ما يمكن للمجتمع

---

١ ـ « محاورات في السياسية » ـ ترجمة المؤلف ـ دار الآداب ـ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

٢ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٤٠ .

الحالي ان يضمه من خائبين »[1] . وامام مثل هذه الانتقــادات الشبيهة بالشتائم ـ أو التي هي شتائم فعلاً ـ لا يستطيع كامبيل الا ان يرحب بناقد متمالك لأعصابه بعض الشيء ، شأن ف . لوديك ، وإن كان يتهم سارتر بأنه يعتمد على « رؤية ميتافيزيقية لوعي ذاتي يحلق كالمطلق فــوق العالم[2] » .

يقيناً ، إن مثل هــذه اللهجة تذكرنا بلهجة الايمانيين حين يتحدثون عن سارتر . إنـــه القلم نفسه والحبر نفسه . لكني أعتقد أن علينــا أن ننتقل الى مستوى أكثر جديـــة لنستمع الى رأي الماركسيين الجديين . فما هو موقف الماركسية فلسفيــاً من الوجودية ؟

---

١ ـ « جان بول سارتر » ـ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

٢ ـ ف . لوديك « هل تجووزت الماركسية ؟ » ص ١٦٥ .

مَوقفُ الماركسيّين مِن سَارتر

اعتقد أن خير دراسة ماركسية صدرت حتى الآن عن الوجودية هي دراسة الماركسي المجري جورج لوكاش بعنوان « ماركسية ام وجودية[1] ؟ » . ومن ميزات هذه الدراسة انها جاءت شاملة : فقد تناولت بالنقد كلا من هيدجر وسارتر وميرلوبونتي ودى بوفوار، كما حاولت أن تعين مكان الوجودية في الفكر الفلسفي المعاصر، وبالنسبة الى صراع العقيدتين البورجوازية والبروليتارية .

يقرر لوكاش هو الآخر ، ومن البداية ، ان الخصومة بين الوجودية والمادية التاريخية هي « مشكلة عقائدية خاصة بمرحلة الامبريالية » ، وانها « مسألة صدام بين اتجاهين للفكر : اولهما الاتجاه الذي يسير من هيغل الى ماركس ، وثانيهما الذي يربط

١ ـ صدر الكتاب عن دار اليقظة العربية بدمشق وبترجمة المؤلف .

شيلنغ بكيير كغارد ».. لكن مثالية كيير كغارد لم تستطع ان تثبت أمام الفكر الجدلي لهيغل وماركس ، ولهذا لم تستطع مد تأثيرها .

ولم يكن ممكناً للخصومة ان تتجدد إلا في بداية المرحلة الامبريالية . وهكذا جاءت الوجودية الإلحادية لتمثل « طريقاً ثالثاً » بين المثالية والمادية ، وهو الطريق الذي تتطلبه المرحلة الامبريالية وأزمتها العقائدية . وازمة الفكر البورجوازي تعود الى القطيعة بين هذا الفكر وبين تطور الواقع الاجتماعي . ولقد ادى التطور الاجتماعي الى افلاس المثالية الموضوعية والمثالية الذاتية والمادية القديمة ، على حد سواء . ولم يبق في الميدان الا « التجديد اللينيني للجدل » الذي يستطيع وحده ان يقدم « تعريفاً مستوعباً » لوقائع التاريخ الجديدة والمشكلات الفلسفية الجديدة . لكن الطبقة البورجوازية لا يمكن ان تلقي السلاح ، ولهذا اخترعت « الطريق الثالث » بين المثالية والمادية ، لتغطي به افلاس المثالية بنوعيها الذاتي والموضوعي ولتدافع عن نفسها ضد تقدم المادية التاريخية الساحق . والوجودية هي احدث تعبير عن هذا الطريق الثالث .

وبالطبع فإن البورجوازية ذكية . ولهذا عندما شعرت بتهديد الزحف المتقدم للمادية التاريخية ومن ورائها البروليتاريا العالمية ، حاولت ان تصد هذا الزحف باختراع « اشتراكية خيالية » مهمتها الوحيدة الوقوف امام مستقبل ، امام « منظور عيني وواقعي للاشتراكية » . انها اذن تصطنع معركة . وهذا

الاصطناع يذكرنا باصطناع خصومة المثالية الذي حدثنا عنه موجان . لكن الفرق بين هذا الأخير وبين لوكاش ، هو ان موجان يتصور ان المعركة المصطنعة تدور بين مذاهب مثالية خالصة، في حين ان لوكاش يميز بين مرحلتين من تطور الرأسمال: الرأسمالية والامبريالية . لذا فهو يرى ان « مرحلة الامبريالية تولد ، في كل مكان تقريباً، صراعاً ضد بعض مظاهر الرأسمالية – وقبل كل شيء المظاهر الثقافية – وهو الصراع الذي يخلطون بينه وبين منظور الاشتراكية » . وقد تكفلت الوجودية بهذا الصراع : فهي تطالب بالحرية وتحتج على غيابها من المجتمع الرأسمالي ، وتستحسن الاشتراكية . لكن مطالبتها تظل مجردة ، وكذلك احتجاجها واستحسانها .

ويرى لوكاش حين بحثه في « الموقف التاريخي للوجودية » ان الوجودية الأصلية التي تفرعت منها الوجودية الفرنسية ، اعني وجودية هيدجر ، انما كانت فلسفة ممهدة للفاشية . وهو يستغرب الا تكون هذه الفلسفة قد صفيت بعد تصفية حكم هتلر . لكنه يستدرك فيقول إن هذه التصفية لم تتم ، لأن القوى الامبريالية كانت تريد الاحتفاظ ببقايا الفاشيين كاحتياطي قابل لأن يستخدم ضد اليسار. وهذه الوجودية الهيدجرية، التي كانت ممهدة للفاشية، هي التي ولدت الفرع الفرنسي ، الفرع السارتري الذي استطاع ان يجند اتباعه اثناء المقاومة الداخلية ضد المحتل النازي . اما كيف انقلبت الهيدجرية الى سارترية ، وبتعبير أدق: كيف انقلبت الوجودية من مذهب ممهد للفاشية الى مذهب مناوىء لها ، فهذا ما لا يفسره لوكاش ، اللهم الا بأن يقول إن

سارتر ادخل « تعديلات خفيفة نسبياً على المذهب » . وحين أصبحت « المقاومة » « تحريراً » ، أي حين جاء دور الإيجابية بدل السلبية، وجدت الوجودية نفسها مرغمة على احداث تغيير، وبخاصة في مفهوم الحرية والاخلاق ، كيا تستطيع خوض « حرب عقائدية ضد الماركسية ، للإبقاء على المؤمنين بهـا في صفوفها ولتوسع فتوحاتها » . وبذلك وحده تستطيع ان تتابع تأدية دورها « كطريق ثالث » ، كسلاح في يد البورجوازية لوقف زحف اليسار الماركسي . لكنه سلاح اخطر من الاسلحة التي سبقته ، لأنه يستطيع ان يعمل داخل معسكر العدو ، أن يضعف الماركسية من الداخل ، وذلك بأن يسرق منها بعضاً من انصارها . « إن الوجودية الفرنسية تطمح الى ان تصير فلسفة المثقفين اليساريين ، الاشتراكيين ، اصدقاء التقدم والاشتراكية . إذن فهي لا تستطيع ، على طريقة نيتشه ، ان تصفي الاشتراكية ، بتوجيه بعض شتائم اليها ، كما لا تستطيع ، على طريقة هيدجر ، ان تتجاهلها رسمياً... بل يتوجب عليها ، على العكس ، ان تقيس نفسها بها في معركة مكشوفة. يتوجب عليها ان تثبت تفوقها في ميداني الاخلاق وفلسفة التاريخ . يتوجب عليها ان تثبت ان مذهب الوجودية قادر على ان يقدم لجميع الاسئلة التي يطرحها التاريخ بخصوص سلوك الانسان ، اجوبة أفضل وأوضح وأوثق واكثر عينية من الماركسية [1] » .

---

١ - « ماركسية ام وجودية ؟ » - نشر دار اليقظة العربية - ص ٩٤ - ٩٥ .

هذه هي الوجودية إذن في رأي لوكاش والماركسيين . انهـا فلسفة اخترعتهـا الرأسمالية في مرحلتهـــا الامبريالية لتكون « طريقاً ثالثاً » بين المثالية والماديـــة . وهي في الواقع فلسفة مثالية تدعي التقدمية لتتمكن من الحلول محـــل الماركسية ، فلسفة الطبقة العاملة الوحيدة . وكل هم هذه الفلسفة المثالية ، التي تزعم انهـــا تتجاوز المثالية والمادية وتركب بينهما في « طريق ثالث » ، ليس ان تتجاوز المثاليـة فعلاً ، بل ان تقطع الطريق على الزحف المادي التاريخي والجدلي .

ترى ، أهكذا هي الوجودية فعلاً ؟

سارتر ضد ماركس ؟

من الغريب أن يكون نقاد سارتر الماركسيون قد سفحوا حبرهم كله في تهديم الوجودية كفلسفة ، وفضحها كمذهب مثالي، وفي شرح الدور الرجعي الذي تلعبه لمصلحة البورجوازية حين تدعي أنها تستطيع أن تقدم أجوبة أفضل من تلك التي تقدمها الماركسية. أقول : من الغريب أن يكونوا قد دحضوا السارترية على المستوى النظري ، وبالأحرى الفلسفي ، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار نتائجها العملية ودون أن يناقشوا موقف سارتر السياسي . هذا غريب من قبل الماركسيين لأنهم أول من يعرف أن وظيفة الفلسفة ليست هي نظرية خالصة ، بل إن مهمتها ، حسب المفهوم الماركسي بالذات ، أن تنير العمل لتستنير به من ثم. ولقد كان واجباً على النقاد الماركسيين لا أن يفضحوا « مثالية » الوجودية فحسب ، بل كان عليهم أيضاً أن يفضحوا أثر هذه المثالية على الموقف العملي لسارتر وجماعته، وبتعبير أدق

على موقفهم السياسي . وهذا ما لم يفعلوه قط، اللهم إلا في بعض المقالات الصحفية السريعة . ومما لا ريب فيه أن موقف سارتر هذا كان « تقدمياً » حتى في رأي الشيوعيين . وإلا كيف نفسر قبولهم بأن يكتب في مجلة « الآداب الفرنسية » التي يديرها لويس آراغون والتي تعتبر المجلة الأدبية الاسبوعية الأولى للشيوعيين الفرنسيين ، والتي ظل سارتر يكتب فيها مدة عامين ، أثناء المقاومة وبعد التحرير ؟ ثم كيف نفسر طلب بيير هرفيه ، ذلك الماركسي الذي قرأناه يتهم سارتر بالجاسوسية لحساب الديغولية، طلبه إليه أن يساهم في تحرير جريدة « العمل » التي يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي[1] ؟ وأكثر من ذلك ، ما الصفة الرجعية التي يمكن أن نلصقها بخطوة سارتر حين انتمى الى منظمة « أنصار السلام » ؟ وأخيراً ، اذا كان الوجوديون رجعيين وعملاء للأمبريالية العالمية ، فبمَ نستطيع أن نفسر مواقفهم التقدمية من الحركات التحررية في البلدان المستعمرة (ومثال الجزائر هو أحدث الأمثلة) ، وكتبهم التي فضحوا فيها استلاب المجتمع الرأسمالي لحرية الانسان ، وأكاد أقول إنهم فضحوا هذا الاستلاب خيراً مما فضحه الماركسيون المتأخرون أنفسهم . وفي أي صنف من الرجعية نستطيع أن نضع كتاب سيمون دي بوفوار « واقع الفكر اليميني »[2] ؟

بالطبع ، ان الجواب الجاهز الذي سيقدمه الماركسيون على

---

١ ـ « محاورات في السياسة » ـ ص ٦٣ .

٢ ـ ترجمة المؤلف ـ دار الطليعة ـ ١٩٦٣ .

هذه الأسئلة هو أن الامبريالية «في مرحلتها الراهنة» — ولنلاحظ أنهم دوماً يلجؤون الى تعبير « في المرحلة الراهنة » — تحتضن أي خصم لهـــا ، مهما كان لدوداً ، بشرط أن يهاجم في الوقت نفسه ، وبالقدر نفسه النظام الاشتراكي الوحيد العيني : النظـام السوفياتي . وهذا ما يعبر عنـــه لوكاش بأتم وضوح حين يقول ان الوجوديين يضعون الفاشية والبولشفية على صعيد واحـــد باعتبارهما « مظهرين متنوعين لنفس النزعة الاستبدادية [١] » .

لكن إذا لم يكن هذا هو موقف سارتر فعلاً ؟ إذا لم يكن يضع الفاشية والبولشفية على صعيد واحد [٢] ؟ فمـاذا سيكون جواب الماركسيين ؟ أعتقد أنهـم لن يستطيعوا أن يجيبوا بأي شيء . وهذا مـــا يفعلونه في الواقع . ولهذا سنقوم نحن بالمهمة التي لم يقوموا بها : فلن ندرس علاقـــة الوجودية بالماركسية فحسب ، بـــل سندرس أيضاً موقف سارتر عملياً من الحزب

---

١ ـ « ماركسيه أم وجودية ؟ » ـ ص ٨ .

٢ ـ واضح أن التهمة التي يوجهها لوكاش هنا الى سارتر تعتمد دليلاً لهـــا مـــا كتبه سارتر في « ما هو الأدب ؟ » . وهي على وجـــه التحديد تعتمد على نص هـــذا الكتاب كما نشر في مجلة « الأزمنة الحديثة » : فقد جاءت في النص المنشور في المجلة المذكورة عام ١٩٤٧ ، جملة يفهم منها أن سارتر يجمع بين الفاشية والستالينية تحت اسم واحد « أنظمة استبدادية ».والحال ان سارتر يوضح الخطأ الذي وقع في هذا المقال ، في الدراسة التي نشرها عن ميرلو بونتي عند وفاته، في مجلة « الأزمنة الحديثة » ، عدد تشرين الاول ١٩٦١ ، والتي يبين فيهـــا أن المسألة لم تكن إلا مسألة غلطة مطبعية . وقـــد صحح هذه الغلطة حين نشر « ما هو الأدب ؟ » في كتـــاب مستقل .

الشيوعي نفسه .

ولنبدأ أولاً بالناحية النظرية .

لعل اول اشارة واضحة ورسمية عن مفهوم الماركسيـة في رأي سارتر هي ما قاله في محاضراته : «الوجودية مذهب انساني» التي ألقاها عام ١٩٤٦ ، والتي يعترف فيها بصراحـة ، عند نقاشه مع السيد نافيل الماركسي ، بأنه يتبنى « الكثير من اوصاف الماركسة[١] » ثم هو لا يكتفي بأن يرد تهمة انه «يرجع الى موقف سابق للماركسيـة [٢] » ، بـل يلمح ايضاً الى ان وجوديته هي موقف لاحق للماركسية ، وبمعنى آخر يلمح الى ان وجوديته « تتجاوز » الماركسية ، او تضيف اليها شيئـاً جديداً على أحسن الاحوال . ونستطيع ان نفهم معنى هـذا التلميح حين يعلن ان الوجودية تنطلق من المقـولة الاساسية لنظرية المعرفة ، مقولة ديكارت المعروفة «نا أفكر فأنا موجود» ، اي الكوجيتو الديكارتي . ويقول ان نظرية المعرفة المنبثقة عن هذا الكوجيتو هي « وحدها القادرة على إعطاء كرامة للانسان ، وحدها التي لا تحوله الى موضوع [٣] » . ومن هنا كان مأخذه على النظرية المادية ، ذلك ان « كل مذهب مادي يؤدي الى معاملة جميع البشر بما فيهم الذات المفكرة على انهم مجموع من ردود الفعل المحددة ، مجموع لا يميزه اي شيء عن مجموع الصفـات والظواهر التي تكون طاولة او كرسيـاً او حجراً [٤] » .

١ ـ « الوجودية مذهب انساني » ـ الطبعة الفرنسية ـ ص ١٣٥ .

٢ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٣١ .

٣ و ٤ ـ المصدر نفسه ص ٦٥ .

والحال ان الصفة الانسانيـة لا يمكن ان ترجع الى الصفة المادية وحدها ، ولذا فـإن الوجوديين « يريدون على وجه التحديد ان يؤسسوا الملكوت الانساني على انه مجموع من القيم المتميزة عن الملكوت المادي [1] » . لكن هذا لا يعني ان الوجوديـة تسقط في الذاتيـة الفرديـة ، لأنها في اللحظة التي تتبنى فيها الكوجيتو الديـكارتي تعطيه مدى جديداً ، حين تقول انـني عندما افكر فلا بد ان افكر بشيء، وهـذا ما يكشف لي عن وجود « الآخرين » .

إن تعميم سارتر حين يقول « كل مذهب مادي » هو الذي يوقع في الالتباس . فمن المعلوم ان هناك مادية ومادية . والمادية الجدلية لا يمكن ان توضع مع المـادية الميكانيكية ، على سبيل المثال ، جنباً الى جنب . فهل كان سارتر يريد ان يشمل المادية التاريخية في إطار المادية التي وجه اليها ذلك المأخذ ؟ الحقيقة ان النص ملتبس . لكننـا نستطيع ان نجزم ببعض اليقين حين نعلم ان سارتر حدد عندما نشر مقاله « المذهب المادي والثورة » انه لا يوجه انتقاداتـه الى مـاركس نفسه ، بل الى السكولائيين الماركسيين ، وبتعبير آخر «إلى ماركس ، من خلال الماركسية الستالينية الجديدة [2] » . وعلى هذا فإن لوكاش كان لا يخلو من شيء من سوء النية حين وضع عنواناً لأحد فصول كتابه الآنف

---

١ ـ المصدر نفسه ـ ص ٦٧ .

٢ ـ « اوضاع » الجزء الثالث ـ ص ١٣٥ .

الذكر : هو « سارتر ضد ماركس » · فسارتر لم يوجه مـأخذه الى ماركس بل الى الماديين ، وقد يكون من بينهم الماركسيون ، لكن ماركسية ماركس شيء وماركسية المـــاركسيين شيء آخر ، كما سيتاح لنـــا ان نعرف ذلك . واكثر من ذلك ، إني سأقول ان سارتر كان على وفاق مع ماركس نفسه حين أخذ على المادية معاملتها للإنسان على انه «موضوع» . وقد كان ميرلوبونتي اول من انتبه لهذه الحقيقـة حين رد على المتهجمين على الوجودية من الماركسيين مذكراً اياهم بكلمة ماركس « ان تكون جذرياً ، فهذا معناه ان تتناول الأشياء من الجذر . والحال ان الجذر ، بالنسبة الى الانسان ، هو الانسان نفسه[1] » ، وبتلك الكلمة الاخرى التي يكاد يكون انتقاد سارتر نسخة طبق الاصل عنها ، والتي يقول فيها ماركس : « إن العيب الاساسي في كل المـادية السابقة هو انها لا تنظر الى الشيء ، الى الواقع ، الى العـالم المحسوس ، الا تحت شكل موضوع او حـدس ، لا كنشاط عيني إنساني ، لا كنشاط عملي ، ولا بطريقة ذاتية[2] » .

وعلى كل ، فإن مـا يهمنا هنـــا ليس هو انتقـادات سارتر للماركسيين ، بل موقفه من المـاركسية ، بالذات . وقد وجدناه يقول ، في الاستشهاد الآنف الذكر من محاضراته ، ان الوجودية تتبنى « الكثير من اوصاف المـــاركسية » . وهذا يعني بكل

---

١ ـ ماركس : « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل » ص ٩٧ . نقلاً عن ميرلوبونتي .

٢ ـ ماركس « اطروحة اولى عن فيورباخ » ـ نقلاً عن ميرلوبونتي .

وضوح ان سارتر كان آنذاك ، في عام ١٩٤٦ ، بعيداً عن الماركسية وقريباً منها في آن واحد معاً ، وانه لم يكن قد حدد بعد مكان الوجودية بالنسبة الى الماركسية . وبالفعل انه هو نفسه يعترف في مقالته « ميرلوبونتي حياً » انه كان يقف آنذاك « الى يمين ميرلوبونتي والى يسار كامو » : الى يمين ميرلوبونتي القريب جداً من الماركسية ، والى يسار كامو البعيد عنها بعض الشيء . ولهذا على وجه التحديد كان ميرلوبونتي أوعى منه آنذاك لموقف الوجودية بالنسبة الى الماركسية ، وهو يعلن بصريح العبارة في مقالته « خصومة الوجودية » المنشورة عام ١٩٤٥ بصدد مؤلف سارتر « الكينونة والعدم » ان « الوجودية حريصة للغاية على التقرب من الماركسية [١] » . وليس ذلك كيما تلتهمها وتبتلعها كما يقول الماركسيون ، بل لأن باب الاجتهاد لم يغلق ولأن الفتح الذي حققته الماركسية حين كشفت عن الوجود الاجتماعي باعتباره البعد الأكثر داخلية لحياتنا ، « يتطلب على الصعيد النظري تصوراً جديداً للوعي يقرر استقلاله وتبعيته في آن واحد معاً ، وذلك بفهم هذا الوعي على أنه عدم يأتي الى العالم ولا يمكنه ان يحافظ على حريته إلا بأن يلزمها في كل لحظة[٢] » . وعلى هذا ، فإن ميرلو بونتي يرى «أن على الماركسية الحية ان « تنقذ » البحث الوجودي وان تدمجه بها ، بدلاً من ان تخنقه [٣] » .

---

١ ـ « المعنى واللامعنى » ـ ص ١٤٢ .

٢ و ٣ ـ المصدر نفسه ـ ص ١٤٣ .

اذن فميرلوبونتي يرى ان الوجودية لا تناقض الماركسية ، بل هي ، بمعنى من المعاني ، تتممها وتكملها : تقدم لهـا نظرية الوعي التي هي بحاجة اليها . ولهذا يتوجب على الماركسية ان تدمجها بها . ان هذا الرأي الذي قاله ميرلوبونتي بعـد عامين من صدور « الكينونة والعـدم » ، أي في عام ١٩٤٥ ، يردده سارتر بنفسه ، ولكن في عام ١٩٥٧ ، اي بعد اثني عشر عاماً ، في دراسته « مسألة منهج » التي قدم بها لمؤلفه الكبير « نقـد العقل الجدلي » . اذن لقد تطور سارتر. في عام ١٩٤٦ كان يعلن انه يتبنى « الكثير من اوصاف الماركسية » ، وفي عـام ١٩٥٧ يطالب بأن تندمج الوجودية بالماركسية. لكن لمَ هذا الاندماج المأمول ؟ وما شروطه ؟ ومـا مصير انتقادات سارتر السابقة للماركسيين ؟ هذا مـا سنجيب عليه بالتسلسل خلال الصفحات التاليات .

الفَلسفَة وَالعَقيدَة

ما الفلسفة ؟ ان مثل هذا السؤال قد يبدو للبعض فذلكة ، لكننا بالاجابة عليه ، سنستطيع ان نعين مكان الوجودية من الماركسية ، وان نفند حجج الماركسيين الذين يتهمون الوجودية بأنها تتطلع الى ان تحل محل الماركسية . والحقيقة ان الوجودية لا تستطيع بأي حال من الأحوال ان تدعي مثل هذا الادعاء ، لأنها قبل كل شيء ، وكما يحددها سارتر نفسه ، عقيدة ، في حين ان الماركسية هي الفلسفة . فماذا نعني بالفلسفة وماذا نعني بالعقيدة ؟

في إجابتنا على هذا السؤال، سنستوحي سارتر نفسه وبخاصة في دراسته « مسألة منهج » . لقد كتب سارتر هذه الدراسة في عام ١٩٥٧ ، حينما طلبت إليه مجلة بولونية فكرية أن يكتب موضوعاً عن « موقف الوجودية عام ١٩٥٧ » . وقد رأى في ذلك فرصة مناسبة ليضع النقاط على الحروف ، من خلال

صفحات تلك المجلة الماركسية ، حول الكثير من الأسئلة التي ما تزال تثار عن علاقة الوجودية بالماركسية .

إن أول ما يلاحظه سارتر أن الفلسفة « غير كائنة » . إنها تتكون ، تبني نفسها من « خلال ظروف محددة لتعطي حركة المجتمع العامة تعبيرها [1] » .

وهذه الظروف هي بكل صراحة ظروف الطبقة الصاعدة التي تخلق لنفسها فلسفتها الخاصة كيما تعي نفسها من خلالها . فالديكارتية على سبيل المثال كانت مرآة للطبقة المؤلفة من نبالة الثوب ومن الرأسمالية التجارية ومن بورجوازية الحقوقيين والتجار وأصحاب المصارف في القرن السابع عشر . وبعد قرن ونصف القرن من الزمن ، وجدت بورجوازية أصحاب المعامل والمهندسين والعلماء صورتها في الفلسفة الكانتية وإنسانها العالمي . والفلسفة ، عدا كونها مرآة لطبقة معينة ، ينبغي أيضاً أن تكون حصيلة شاملة لمجموع المعارف المعاصرة ، بالاعتماد على بعض المبادىء الموجهة التي تعبر عن « مواقف وتقنيات الطبقة الصاعدة أمام عصرها وأمام العالم » . وعلى هذا الأساس ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن « الفلسفة » لأن هناك « فلسفات » . لكن من الواضح أن عصور الإبداع الفلسفي

---

١ ـ « نقد العقل الجدلي » في « مسألة منهج » . ولما كنا في هذا الفصل سنستشهد بكثرة بهذا الكتاب ، فلن نشير الى مواضع الاستشهاد . وعلى كل ، يستطيع من يريد التوسع في الموضوع ان يرجع الى النص نفسه الذي سيصدر قريباً بترجمتنا تحت عنوان « الماركسية والوجودية » .

نادرة ، باعتبار أن الانقلابات الطبقية نادرة ومعدودة . والواقع انه بين القرن السابع عشر والقرن العشرين توجد ثلاث فلسفات فقط ، أو بالأحرى ثـــلاث فترات من الإبداع الفلسفي : فترة ديكارت ولوك ، وفترة كانت وهيغـل ، وفترة ماركس . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان الماركسية هي التعبير عن طبقـــة البروليتاريا الصاعدة ، وان هذه الطبقة هي أحدث طبقة تاريخياً وجدلياً ، أدركنا أنه لا يمكن بأي حـال من الأحوال أن تقوم فلسفة تستطيع تجاوز الماركسية ، باعتبار أن المجتمع الراهن لم يولد بعد طبقة تستطيع تجاوز البروليتاريا .

لكن إذا مـــا حصرنا لقب الفيلسوف بـديكارت وكانت وهيغل وماركس ، فـــأي اسم نطلقه على أمثـــال شوبنهاور وبرغسون وكيير كغارد وسارتر نفسه ؟ إن هؤلاء وأمثالهم هم ، في رأي سارتر ، واضعو عقائـد ، ومهمتهم هي تحسين الانظمة الفلسفية الأساسية واستكشاف أراضٍ مـا تزال مجهولة ومنح النظرية وظائف تطبيقية . ولا يصح بأي حال من الأحوال أن نسميهم فلاسفة لأنهم ، مهما هدموا وبنوا، فإنهم يظلون يرضعون من « الفكر الحي للأموات الكبار » . وعلى هذا فإن الوجودية ليست إلا « عقيدة » . إنهـا « نظـام طفيلي يعيش على هامش حصيلة المعرفة ، عارض في البداية هذه الحصيلة ، وهو يحـاول اليوم ان يندمج بها » .

ونحن نفهم في مثل هذه الحال ان يهاجم الماركسيون الوجودية باعتبارها ، في رأيهم ، رجعية او مثالية ، لكن مـــا لن نفهمه

اطلاقاً هو زعمهم بأنها تريد الحلول محل الماركسية . إذ كيف يمكن للوجودية ان تطمح الى مثل هذا المطمح ، إذا كانت لا تتصور نفسها الا مجرد عقيدة تعيش على هامش الماركسية ؟ غير ان السؤال الذي يطرح نفسه هنا فوراً هو التالي : لنقبل بأن الوجودية ليست إلا عقيدة ، لكن ما مبررات هذه العقيدة ؟ ما ظروف ولادتها؟وكيف أمكنها ان تولد خارج الماركسية ، ولماذا لم تندمج بها ؟

هنا لا بد ان نعود، كما يرى سارتر الى الوراء ، الى زمن كيركغارد ، ابي الوجودية . ونحن لن نستطيع ان نفهم كيركغارد ، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار انه كان يعيش في زمن الفلسفة الهيغلية . والهيغلية هي تلك الحصيلة الفلسفية التي تمكنت ، لأول مرة في تاريخ الفلسفة ، ان تدمج حتى الذات المفكرة بالحركة الشاملة للفكر، أن تدمج نسبية الذات المفكرة، من خلال الحركة الجدلية ، بالنظام الذي تبنيه هذه الذات والذي يتجاوزها في الوقت نفسه باعتباره المطلق الذي لا مطلق بعده . وعلى هذا ، فإن الهيغلية تعتبر ان « التجربة المعاشة » وأن « مأساوية الحياة » ليستا الا لحظتين من لحظات مطلق الفكر . إن المعرفة تتجاوز المعاش ، والتجربة الشخصية تتبخر في موضوعية النظام .

وبالطبع ان كيركغارد ، كما يرى سارتر ، لا يكاد تكون له اهمية أمام هيغل. ولقد رفض هو نفسه لقب فيلسوف . وإذا ما فهمنا ان القانون الأول لحركة الفكر هو الجدل، ادركنا عامل

الظروف التي تطلبت ان يرفع كيير كغارد صوته محتجاً على الهيغلية . انه يأخذ عليها تناسيها وإهمالها « الكثافة التي لا يمكن تجاوزها » للتجربة المعاشة . انه مسيحي لا يريد ان يحبس نفسه في النظام ، ويؤكد بلا كلل عدم قابلية التجربة المعاشة الى الإرجاع الى أي فكرة من الافكار ، كما تنص على ذلك الهيغلية . انه يرى ان الانسان الموجود لا يمكن ان ينحل في المعرفة . وعلى هذا فإنه طالب بالذاتية المتفردة الخالصة ضد عمومية الماهية الموضوعية، وبالحياة الشخصية المباشرة ضد توسط الفكر المجرد .

ان كيير كغارد ، كما نرى ، لا يمكن ان يفصل عن هيغل . ونفيه العنيف لكل نظام لا يمكن ان يولد إلا في حقل ثقافي تسيطر عليه الهيغلية تمام السيطرة . والواقع ان كيير كغارد على حق ضد هيغل بقدر ما أن هيغل على حق ضد كيير كغارد . إن هيغل لا يستسلم لذاتية فارغة وهو انما يتطلع الى « العيني الحقيقي » . وبالمقابل فإن كيير كغارد يرى ان هوى البشر وحاجتهم وألمهم وقائع خاصة لا يمكن للمعرفة ان تتجاوزها . صحيح ان مذهبه الديني الذاتي مغرق في مثاليته ، لكنه يسجل تقدماً على هيغل نحو الواقعية باعتبار انه يلح على عدم قابلية واقع معين للإرجاع الى النظام الفكري . وعلى هذا ، فإن موقف كيير كغارد هو حكم بالموت على المثالية المطلقة: فلم تعد المثل والافكار هي التي تغير البشر ، ولا يمكن ان نعرف الهوى بواسطة علته كي نحذفه ، بل لا بد ان نعيشه قبل كل شيء .

اما الفيلسوف الذي هو على حق ضد كيير كغارد وهيغل في آن واحد معاً فهو ماركس. انه يؤكد، هو الآخر ، ان الواقعة الانسانية غير قابلة للإرجاع الى المعرفة ، وانه لا بد لهـا ان تعيش نفسها وتنتج ذاتها ، لكنه لا يخلط بينها وبين الذاتيـة الفارغة لبورجوازية صغيرة طهرانية. انه يؤكد مع كيير كغارد نوعية الوجود الانساني ، وينظر مع هيغل الى الانسان العيني من خلال واقعه الموضوعي. ولهذا فقدت الوجودية الكيير كغاردية كل نفع لها ، ولم تعش بعد افول الهيغلية .

لكن إذا كان ظهور ماركس قد قطع الطريق على مآخـذ كيير كغارد ضد هيغل، وإذا كانت وجودية كيير كغارد لم يعد لها من دور تؤديه مع ظهور الماركسية ، فلماذا ظهرت الوجودية الفرنسية ، وجودية سارتر ؟ هنا ايضاً ، سنتابـع الاستماع الى سارتر .

توقّفُ الماركسيَة

لماذا احتفظت الوجودية باستقلالها ؟ لمَ لم تندمج وتنحل في الماركسية ؟

لقد ظن لوكاش انه اجاب على هذا السؤال حين بيّن ، كما رأينا ، ان أزمة العقيدة البورجوازية في مرحلة الامبريالية تتطلب ظهور « طريق ثالث » بين المثالية والمادية . لكن ما لم يدركه لوكاش البتة هو ان سارتر يعتقد في الوقت نفسه بأن « المادية التاريخية تظل التفسير الوحيد الصالح للتاريخ » . اما الوجودية فدورها يشبه الدور الذي لعبه كيركغارد ضد هيغل : فهي ، بعد ان شوه الماركسيون المتأخرون الماركسية وجمدوها وأبعدوا عنها الانسان واعتبروه موضوع التاريخ لا ذات التاريخ الفاعلة ، اقول إن الوجودية تريد ان تعيد الى هذا الإنسان عينيته وذاتيته ، وهي تعتبر نفسها « التقريب العيني الوحيد للواقع » .

لقد توقفت الماركسية ، حدث فيها انشقاق حقيقي بين النظرية والتطبيق ، على وجه التحديد لأنها تريد أن تكون عملية ، تهدف الى « صيرورة — الفلسفة — عالماً » . لقد اضطرت الماركسية الى أن تتلاءم مع متطلبات بناء الاشتراكية والتصنيع في الاتحاد السوفياتي . لقد كان قادة الحزب البولشفي بحاجة الى « وحدة المعركة » ، ولقد خافوا أن تؤدي « الصيرورة الحرة للحقيقة ، بما تشتمل عليه من مناقشات ومنازعات ، الى تحطيم تلك الوحدة » . ولما خشوا أن تكذب التجربة العينية بعض مبادئهم ، فقد فصلوا بين النظرية والتطبيق ، مخالفين بذلك الشعار الماركسي الأول القائل بأن «الفكر العيني يولد من التطبيق وينقلب عليه ليسلط الأضواء عليه » . ولقد أدى انفصال النظرية والتطبيق الى أن ينقلب هذا الأخير الى « نزعة تجريبية بلا مبادىء» والى أن تنزل النظرية منزلة « العلم المحض الجامد» . بل إن قادة الحزب أوقعوا أنفسهم في حبائل المثالية : فقد أصبح التخطيط ، « المفروض من قبل بيروقراطية لا تريد أن تعترف بأخطائها » ، اغتصاباً وإكراهاً للواقع ، ولما كان إنتاج الأمة المستقبل يحدد في المكاتب ، فقد كانت نتيجة هذا الاغتصاب مثالية مطلقة : فقد «بات البشر والأشياء يخضعون قبلياً للأفكار والمثل ، والتجربة ، حين لا تحقق التنبؤات ، لا يمكن إلا أن تكون مخطئة » . ويضرب سارتر على هذا التحليل مثالاً يبعث على الابتسام حقاً : لقد أراد راكوزي ، سكرتير الحزب الشيوعي المجري ، أن يبني في بودابست مترو ، أي قطاراً يسير

تحت الأرض ، لكن سراديب بودابست لم تكن تصلح لبنائه .
ولو كان راكوزي ماركسياً صحيحاً ، لأدرك أن مشروعه هذا غير واقعي ، لكنه بدلاً من ذلك راح يتهم سراديب بودابست بأنها رجعية و « مناوئة للثورة » . وهذا ما كان يفعله المثقفون الماركسيون طوال السنوات الماضية : فقد كانوا يهملون التفاصيل المحرجة ، ويبسطون تبسيطاً غليظاً المعطيات ، ويحولون الحدث الى مفهوم حتى قبل أن يدرسوه . وهذا ما كان ماركس يحاربه بعنف ، وكتابه « ١٨ برومير » المليء بالتفاصيل الغنية ، والبعيد عن المفاهيم المجردة ، الذي درس فيه انقلاب لويس نابليون بونابرت ، هو خير شاهد على تلك الماركسية الحية التي جمدها الماركسيون .

إن الماركسية اذن ، رغم أسسها النظرية ورغم معانقتها لكل النشاط الانساني ، لم تعد تعرف شيئاً ، وهدفها ليس الوصول الى معلومات ومعارف ، بل تأسيس نفسها قبلياً على انها علم مطلق . ولهذا أمكن للوجودية أن تولد من جديد وأن تثبت أقدامها ، لأنها تعيد توكيد الواقع الانساني . والوجودية والماركسية تتطلعان الى الموضوع نفسه لكن « الثانية ذوبت الانسان في الفكرة ، في المثال ، في حين ان الأولى تبحث عنه أينما وجد ، في عمله ، في بيته ، في الشارع » . والوجوديون لا يزعمون أن الانسان الواقعي لا تمكن معرفته ، كما كان يقول الوجودي الاول كيير كغارد ، بل يقولون فقط « إنه غير معروف » . إن التيبس الذي أصاب الماركسية حكم على الانسان

الشيوعي، سواء أفي البلدان الاشتراكية أم في البلدان الرأسمالية، بألا يعي نفسه وعياً واضحاً : إن إحدى مميزات عصرنا الأساسية هي أن « التاريخ يصنع نفسه دون أن يعرف ذاته » . وقد يقول البعض ان الحال كانت هكذا دوماً . وهذا صحيح « حتى النصف الثاني من القرن الماضي، باختصار حتى ماركس». لكن الماركسية ، منذ عشرين عاماً على وجه التحديد ، لم تعد تتعايش مع التاريخ ، بل أن ظلها يحول بينه وبين أن يعرف نفسه .

لكن سارتر يحذر من أنه لا يعني أن هذا التيبس هو هرم طبيعي . بل انه يعتقد أن الماركسية ما تزال فتية ، بله طفلة . إنها ما زالت إذن فلسفة عصرنا : « فالظروف التي أنتجتها لم تتجاوز بعد . وافكارنا ، مهما كانت ، لا تستطيع إلا ان تتغذى من تربتها . إن عليها أن تضع نفسها في الاطار الذي تقدمه لها أو ان تضيع في الفراغ أو ترجع الى الوراء » . وعلى هذا فإن الوجودية على وفاق مع انجلز حين يكتب : « إن البشر هم الذين يصنعون تاريخهم بأنفسهم لكن في وسط معطى يشرطهم ، وعلى أساس الظروف الواقعية السابقة التي تظل الظروف الاقتصادية من بينها ، مهما تأثرت بالظروف الاخرى من سياسية أو عقائدية ، هي الشروط المحددة » . لكن الوجودية لا تفهم هذه الشروط الاقتصادية على أنها « مجرد بنية سكونية لمجتمع ثابت : بل هي تناقضاتها التي تشكل محرك التاريخ » . بل أكثر من ذلك ، إن الوجودية تتبنى المذهب المادي كما عرفه ماركس في

«رأس المال» ، فالمادية تعني أن «نمط إنتاج الحياة المادية يسيطر بشكل عام على تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية» ولهذا فإن سارتر يستغرب ما يزعمه لوكاش في كتابه الآنف الذكر من أن الماركسية تتميز عن الوجودية في كونها تعطي «الأولوية للوجود على الوعي» . ذلك ان الوجودية ، كما يدل اسمها ، تؤكد هذه الأولوية تأكيداً مبدئياً . لكن لا بد هنا من أن نشير الى أن سارتر لم يكن قد تبنى هذا الموقف تمام التبني في عام ١٩٤٦ ، أي قبل اثني عشر عاماً ، في حين ان لوكاش كتب دراسته عام ١٩٤٨ . والواقع ان سارتر يهاجم المادية هجوماً عنيفاً في مقالته «المذهب المادي والثورة» ، بل اكثر من ذلك ، كان لا يرى ان المذهب المادي ضروري للثورة . اذن لا بد لنا من ان نرجع الى تلك المقالة كيما نحيط بكل تطور سارتر .

المذهب المادي والثورة

لقد رأينا في الصفحات الأولى من هذه الدراسة ان سارتر لا يعتقد بأن الفلسفة كائنة ، هو يرى انها تتكون . وإذا ما فهمنا هذا الرأي ، ادركنا اننا لا نستطيع ان ننظر الى سارتر عام ١٩٣٩ وسارتر ١٩٤٦ وسارتر ١٩٥٧ ، بمنظار واحد . ان فكر سارتر لا يمكن ان ينحصر في أي زمن من هذه الأزمنة، بل ينبغي ان نعتبره المحصلة الجدلية لكل هذه الأزمان. وبتعبير آخر نستطيع ان نقول ان سارتر لو لم يكتب « المادية والثورة » عام ١٩٤٦، لما كتب «مسألة منهج » عام ١٩٥٧ . وما دام سارتر ١٩٥٧ لم يدحض وينكر ما كتبه سارتر ١٩٤٦ ، فإن علينا ان نحيط بتطور سارتر خلال هذه الفترة دون ان نتكلم عن تناقض او إنكار ، بل عن تكامل وتنسيق. وبالطبع ، نحن لا نقول بالحتمية ، لكننا نرى ان « المذهب المادي والثورة » كانت تشتمل على بذور « مسألة منهج » . ومن كتب الدراسة

الأولى ليس بعيداً عن أن يكتب الثـــانية ، رغم ما يمكن ان يبدو لنا من تناقض وتراجع بين الدراستين . وهذا مــا انتبه اليه الدكتور جمال أتاسي في مقالته المطولة التي قــدم بها ترجمته لـ « المذهب المــادي والثوري » والتي درس فيهـا تطور سارتر الذي نتكلم عنه، والتي يقول فيها إن موقف سارتر في « المذهب المادي وانثورة » هو« مرحلة تجاوزها ولكنه لم يدحضها . ولقد كان ذلك الموقف بداية لطرح مشكلة ومعاناة تجربة، والانتقادات التي أوردها سارتر يومها ما زالت قائمة يؤكدها اليوم ، وإن غير مصطلحاتها[1] » . والحقيقة إن الانتقادات التي أوردها سارتر في « المذهب المادي والثورة » قد تثير استغرابنا، نظراً لما قدمنا عن موقفه من الماركسية كما شرحه في « مسألة منهج ». لكن إذا اخذنا بعين الاعتبار ان الماركسية التي اعترف بأنها فلسفة الطبقة العاملة هي ماركسية ماركس لا الماركسيين ، وأن المادية التي هاجمها في « المذهب المادي والثورة » هي مادية انجلز وأتباعه من الماركسيين المعاصرين لا مادية ماركس ، زال عنا ذلك الظل من الاستغراب . وبالفعل ، لقد تلقى النقاد المـــاركسيون نشر « المذهب المادي والثورة » بالتجريح العنيف ، وهذا مــا حدا بسارتر الى ان يحدد ، حين نشر مقالتـــه في الجزء الثالث من « اوضاع » ، بأن انتقاداته غير موجهة الى ماركس بل إلى « سكولائية ١٩٤٦ الماركسية . وبالأحرى الى ماركس من خلال

---

١ – مقدمة « المذهب المادي والثورة » – ترجمـــة جمال الاتاسي وسامي الدروبي – دار اليقظة بدمشق – ص ٢٧ .

الماركسية الستالينية المحدثة » . وبالفعل ، ان المواضع الوحيدة التي ذكر فيها ماركس ، لم يكن القصد منها نقده بل بيان انه على وفاق معه ضد الماركسيين المعاصرين . اما من وجه اليهم الانتقاد فهم على وجه التحديد أنجلز وستالين وغارودي وهرفيه ونافيل .

لكن ما هي هذه الانتقادات ؟

يبدأ سارتر بأن يطرح أزمة ذلك الجيل من الشباب الذي شق طريقه الى الالتزام السياسي والأخلاقي في غضون الحرب العالمية الثانية، ذلك الشباب الذي رفض المثالية بكل قواه لعلمه أنها من جانب اليمين ، والذي لم يستطع في الوقت نفسه أن يقبل بالمادية لعلمه انها تبدو خاطئة فلسفياً. لقد وضع الماركسيون ذلك الجيل أمام إحراج لا مخرج منه : فهو وإن رفض المثالية ، سيظل مثالياً رغماً عنه ما دام لم يتبن المادية . لكن كيف يقبل هذا الجيل بالمادية ، وفي خاطره سؤال لا يستطيع الماركسيون الإجابة عليه : كيف يمكن للمادة ان تولد فكرة المادة؟ وهكذا حكم عليه بأن يظل على عتبة الماركسية: إنه لا يجرؤ لا على الدخول ولا على الابتعاد . والذنب في ذلك ليس ذنبه بل ذنب أولئك الذين يدعون انهم جدليون ويريدون مع ذلك ان يرغموا الشباب على الاختيار بين المادية أو المثالية دون ان يفتحوا إمكانية تركيب بينهما كما ينص على ذلك قانون الجدل نفسه . والحق يقال إن لوكاش يبدو لنا هنا ، وللمرة الاولى ، محقاً في اتهامه الوجودية بأنها تريد ان تكون طريقاً ثالثاً بين المثالية والمادية .

ولكن سارتر معذور بعض الشيء باعتبار ان نقطــة الضعف الأساسية في المادية تكمن في نظريتها عن الانعكاس : المــادة تولد فكرة المادة. وكل ما يريده سارتر هو ان يستبدل كلمة الانعكاس بكلمة الوعي ، لأن نظرية الوعي ستفتح الطريق امــام الحرية الانسانية وستنقذ المادية من النزعة الحتمية . لكن مــا لم يدركه سارتر في الوقت نفسه هو ان ذلك التركيب الذي يطالب به بين المادية والمثالية قد حققته المادية الجدلية نفسها بتنفيذها المذهب المادي الميكانيكي. لكن لا يغرب عن بالنا أيضاً أن سارتر لم يكن يناقش المادية الجدلية بل من يزعمون انهم من اتباعها .

والحقيقة ان المسك الأساسي لسارتر على المــاديين هو انهم يرجعون كل شيء إلى المادة ، الى العــامل الاقتصادي ، دون ان يأخذوا بعين الاعتبار ذلك الهامش من الحريــة الذي تكلم عنه ماركس نفسه . وإذا كان المادي يأخــذ على المثاليين ميتافيزيقتهم حين يرجعون المادة الى الفكر ، فأي معجزة تنقذه من الوقوع في الميتافيزيقا حين يرجع الفكر الى المــادة ؟ وصحيح ان الشروط الاقتصادية « تسيطر بشكل عام على تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية » كما قــال ماركس ، لكن الماركسيين المحدثين يغفلون عن عبارة « بشكل عام » ليتبنوا حتمية مطلقة لا تحتمل أي هــامش من الحرية . ثم إذا كان « التصور المادي للعالم يعني بكل بساطة تصور الطبيعة كما هي ، بدون أي إضافة خارجية » ، أفــلا يحق لنا ان نتساءل : من يقرر ان هــذا التصور لا ذاك ولا غيره هــو الذي يعبر عن

الطبيعة كما هي ؟ ثم إن من سيقرر ذلك لا بد ان يكون خارج الطبيعة ، ليحكم عليها ؟ إن من يقارن لا بد ان يكون في الخارج والداخل في آن واحد معاً ، والحال انه ما دام ذلك مستحيلاً فإن المقاييس الوحيدة التي نملكها لنقرر ما إذا كان الانعكاس مطابقاً أو غير مطابق للطبيعة ، انما هي « مقاييس داخلية وذاتية . وباختصار مقاييس مثالية » .

يقيناً ، إن الماركسيين سيردون بأن سارتر لم يفهم شيئاً ، وبأنه خلط بين المادية الميكانيكية والساذجة وبين المادية الجدلية . وهنا يعلن سارتر فوراً أنه يقبل بقانون الجدل فيما يخص الفكر ، فالجدل خاصية الفكر . لكن الماركسيين يردون من جديد بأن الجدل عند هيغل كان يقف على رأسه في حين انهم يريدونه ان يقف على قدميه ، ولهذا فهم يرون ان الجدل هو خاصية المادة لا الفكر . وإذا ما سألتهم أي مادة يقصدون ، اجابوك : المادة التي يتحدث عنها العلماء . والحال ان ما يميز هذه المادة كما يقول سارتر هو عطالتها ، وهذا يعني « انها عاجزة عن توليد شيء من ذاتها » . ثم إن العلم بطرائقه ومبادئه نقيض الجدل ، ذلك لأنه لا يؤمن بالتركيب ، وإن استعمل هذه اللفظة احياناً . إن ذرة الاوكسجين التي تتحد بذرتين من الهيدروجين لتكوّن الماء ، تظل محتفظة بخصائصها ، والماء ليس كلاً حقيقياً يتحكم في مركباته ، بل هو مجرد محصلة سالبة : انه حالة لا تركيباً جدلياً ، والكيميائي يستطيع في كل لحظة ان يعيد الماء — بتحليله — الى ذرة من الاوكسجين وذرتين من الهيدروجين . والواقع ان

« اداة العالم هي التحليل ، وهدفه الدائم إرجاع المعقد الى البسيط ... في حين ان المفكر الجدلي يعتبر ، من حيث المبدأ ، ان العقد غير قابلة للإرجاع » : اننا لا نجد في العلم كلية عضوية .

يزعم انجلز ان علوم الطبيعة قد أثبتت أنها تعمل بطريقة جدلية لا ميتافيزيقية ، ويستشهد على ذلك بأبحاث داروين . لكن سارتر يرد بأن داروين بيّن ان الانواع تشتق بعضها من بعض ، ومحاولته في تفسير ذلك ذات طابع ميكانيكي لا جدلي . إن جدل صراع الطبقات ينص على ان البروليتاريا ستذيب فيها الطبقة البورجوازية في وحدة المجتمع اللاطبقي . في حين ان الاقوياء ، في الصراع من أجل البقاء ، يقضون ببساطة وبشكل محض على الضعفاء . ثم ان عامل الصدفة في النظرية الداروينية لا يتطور : انه ينتقل بطريق الوراثة .

ويستشهد انجلز ايضاً بالفيزياء ، فيقول : « إن كل تغير ، في الفيزياء ، هو انتقال من الكمية الى النوعية ... وهكذا إذا ما زدنا أو انقصنا من حرارة الماء ، فإن الماء يتحول في الحالة الاولى الى بخار وفي الثانية الى جليد » . والحال ان العلم لا يهتم الا بالكمية . والحقيقة ان تحول الماء الى بخار أو الى جليد هو تحول كمي ، والعالم انما سيحدد البخار بالضغط . ثم على فرض ان انجلز محق ، وان هناك انتقالاً من الكمية الى النوعية ، فهل في ذلك شيء من الجدل ؟ إن البخار سيرتفع في الجو ثم سيسقط من جديد مطراً ، فأين التقدم في ذلك ؟

ولا شيء يدل على تخبط الماديين كمحاولتهم تفسير « البنى

الفوقية » بأنها مجرد « انعكاس » لنمط الإنتاج . يكتب ستالين: « إذا كنا نرى في ظل نظام العبودية أفكاراً ونظريات اجتماعية معينة ، وآراء ومؤسسات سياسية معينــة ، بينما نرى غيرها في ظل النظام الإقطاعي ، وبينما نرى غير ذلك أيضاً في ظل النظام الرأسمالي ، فإن ذلك لا يرجع الى « طبيعة » أو الى « صفات » الأفكار والنظريات والآراء والمؤسسات نفسها ، بـل يرجع الى مختلف شروط الحيــاة الماديـــة التي تكتنف المجتمع في مختلف مراحل التطور الاجتماعي . فحالة المجتمع ، أي شروط الحيــاة المادية التي تحيط بالمجتمع ، ذلك هو ما يعين أفكاره ونظرياتــه وآراءه السياسية والمؤسسات السياسية فيه [١] » .

إننا ههنا، وكما يدل النص، في ميدان الحتمية ، وعلاقة البنى الفوقية بنمط الإنتاج هي علاقة المعلول بالعلة . و « على هـــذا الأساس تخيل أحد السذج ذات مرة أن فلسفة سبينوزا إنما هي الانعكاس الدقيق لتجارة الحبوب في هولاندا » . وبالطبع إن الماديين لا ينكرون أن « للبنى الفوقية دورها ووظيفتها ، وها هــو ستالين يقول في الكتاب نفسه : « إن الأفكار والنظريات الاجتماعية الجديدة لا تنبثق إلا حين يفرض تطور حياة المجتمع المادية مهمات جديدة على هذا المجتمع ... فإذا ما انبثقت أفكار ونظريات اجتماعية كان ذلك يرجع الى أنهــا ضرورية للمجتمع ، كان ذلك يرجع الى أن حل المشكلات الملحة التي يشتمل عليها

---

١ ـ ستالين « المادية الجدلية والمادية التاريخية » .

تطور الحياة المادية في المجتمع يكون مستحيلاً ، ما لم تقم هي بما تقوم به من وظيفة التنظيم والتعبئة والتعديل » .

إننا نرى من هذا النص أن الضرورة (أو الحتمية) أخذت وجهاً آخر تماماً . فالفكرة تنبثق لأنها ضرورية لإنجـــاز مهمة جديدة ، ومعنى ذلك أن « المهمـــة ، حتى قبل أن تتحقق ، تستدعي الفكرة التي ستسهل إنجازهـــا » . إذن فالفكرة « يفرضها ويبعثها فراغ لتأتي هي وتملأه » . لكن كيف يمكننا أن نأخذ برأيي ستالين هذين في آن واحـــد معاً ؟ كيف يمكن للبنى الفوقية أن تكون انعكاساً للشروط المادية ، ثم نقول إنها تأتي لتسهل المهمة التي لم تنجز بعـــد ؟ ومعنى ذلك أن الماديين يرون أن البنية الفوقيـــة هي انعكاس للمهمة الاجتماعيـــة التي لم تتحقق بعد ، انعكاس لما لم يوجد بعد !

ومهما يكن من أمر ، فإن التصور المـــادي هو تصور الكادحين ، والمادية كانت مرتبطة دوماً بالموقف الثوري ، وهي فلسفة البروليتاريا بقدر مـــا تكون هذه الطبقة ثورية . لكن هذا لا يعني أن المادية هي الحقيقة . إن الماديـــة « هي بلا نقاش الأسطورة الوحيدة التي تناسب المطالب الثوريـــة . والسياسي يستطيع أن يقنع بالأسطورة إذا كان مشروعه قصير الأمـــد ، لكنه « بحاجة الى الحقيقة » اذا كان مشروعه طويل الأمـــد . ولهذا يتوجب على الفلسفة أن تتحرى مـــا في المادية من حقائق لتنطلق منهـــا في تكوين الفلسفة الحقيقية التي تناسب المطالب الثورية كل المناسبة ، وعلى مدى بعيد . إذن فسارتر لا يكنس

المادية دفعة واحدة ، لكنه يرى أنها « عاجزة عن بيان وعي الطبقة الثورية » . إن الوضع المادي لا يمكن أبداً ان « يولد » الوعي الطبقي ، وهذا ما يعرفه الماركسيون أصلاً حين يعتمدون على المناضلين لتعبئة الجماهير الحزبية . وإذا كانت المثالية تضلل الانسان الثوري لأنها تقيده بالقيم البالية ، فإن المادية أيضاً تضلله إذ تسرق منه حريته . وما حرية الانسان غير تلك القدرة على الانفصال عن وضعه ليعيه ؟ إن الانسان يفلت من عالم الحتمية والضرورة ، عن عالم الأشياء ، بوعيه . فإذا ما جاءت المادية لتنفي هذا الوعي ، أفلا تكون قد سلبته حريته ؟ والواقع أن المادية تعتبر الانسان شيئاً من الأشياء ، موضوعاً من المواضيع ، وعلى هذا الأساس وحده تستطيع أن تبرهن على نظريتها في الانعكاس . لكن البروليتاري إنما يريد الاشتراكية كيما يحقق حريته ، كيما يتميز عن عالم الأشياء . ذلك أنه يعرف ان رب العمل يعامله معاملة الشيء (ما من نظرية تشيِّيء الانسان كالتيلورية) . وهو إذا كان يطالب بزيادة أجره ، فليس ذلك لأنه مادي بل لأنه يرى في هذه المطالبة رمزاً عينياً لمطالبته بأن يكون إنساناً ، أي حرية تملك مصيرها بيدها . وهذا هو أصلاً رأي ماركس نفسه في « الاقتصاد السياسي والفلسفة » . إن المثالية والمادية على حد سواء تقضيان على الواقعي : « الأولى لأنها تحذف الشيء ، والثانية لأنها تحذف الذاتية » . ومعنى ذلك ان واقعية الثوري الحقيقية تتطلب في آن واحد معاً وجود العالم الخارجي والذاتية.

بل أكثر من ذلك ، فنحن « لا يمكننا أن نتصور ذاتية خارج العالم ولا عالماً لا ينيره جهد ذاتية » . وهذا أصلاً ما كان يرتئيه ماركس نفسه ، قبل التقائه « المشؤوم » بانجلز ، على حد تعبير سارتر .

لقد رأينا حتى الآن ان سارتر ، رغماً عن كل انتقاداته للمادية ، لا يستبعدها استبعاداً مطلقاً ، بل يرى انها ناقصة وبخاصة فيما يتعلق بنظرية الوعي . وقد يحق للمرء ان يتساءل : ما فائدة « الوعي » للانسان الثوري ، للبروليتاري ؟ هنا يجيب سارتر بأن نظرية الانعكاس هي نظرية حتمية ، وبالتالي فإن الاشتراكية هي الأخرى حتمية . لكن هناك اشتراكية واشتراكية ، بل قد تكون هناك اشتراكية همجية . وما يطالب به الثوري هو امكانية ان يكتشف قانونه الخاص . انه لايعتقد ان الاشتراكية تنتظره في احدى زوايا التاريخ ، كما ينتظر المسافر الحجر الذي يشير الى المسافة . بل هو يصنع الاشتراكية. ان نظرية الانعكاس تنص على ان الاشتراكية قادمة لا أكثر ولا أقل . في حين ان نظرية الوعي الوجودية ، اي نظرية الحرية الانسانية، لا تقول ان الاشتراكية قادمة فحسب، بل هي تلقي ايضاً على الانسان مسؤولية الطبيعة الخاصة لهذه الاشتراكية ، مسؤولية ألا تكون هذه الاشتراكية « المحتومة » همجية .

اخيراً ، لقد بدا لنا سارتر احياناً ، من خلال دراسته هذه ، وكأنه يعتقد ان الوجودية تتجاوز المادية الجدلية ،

تحقق التركيب الجدلي بين المــادية والمثالية . لكن الحقيقة التي خفيت عنه آنذاك ، عام ١٩٤٦ ، هي ان نظرية الوعي التي تقدمها الوجودية لا تناقض المادية الجدلية ولا تتجاوزها بــل تتممها وتكملها ، وهذا ما انتبه إليه ميرلوبونتي الذي كان اقرب الى اليسار من سارتر ، كما رأينــا في فصل « الوجوديــة والماركسية » ، حين طالب الماركسية الحية بأن تدمج بها منهج البحث الوجودي .

لكن اذا كان سارتر قد انتهى بعد احد عشر عاماً من نشر « المذهب المادي والثورة » الى ان يطــالب هو بدوره بدمج الوجودية بالماركسية ، أفــلا يحق لنــا ان نتساءل عن مصير الانتقادات الواردة في هــذه الدراسة ؟ في الحقيقة ان سارتر لم يتخل عن انتقاداته ، كل ما هنالــك انه غير موقفه من الفكر الماركسي الأصيل . وعلى هذا فإن انتقاداته تظل قــائمة باعتبار انها موجهة لا الى ماركس بل الى من يحملون شعــار التبعية له . وهذا ما سنبينه في الفصول القادمة .

كسل الماركسيين

يقول سارتر في « المذهب المادي والثورة » انـه لا يحاسب الماركسيين على ما يعتقدونه بل على ما يفعلونه . وهذا ما يفسر بأنه لا يكتفي بأن يكون مجرد ماركسي. ولهذا فإنه في اللحظة التي يصرح فيها بأنه يتبنى الماركسية كمنهج موجه ، يوجه ايضاً عدداً من الانتقادات الاساسية الى الماركسيين . ولعلنا نستطيع ان نلخص كافة انتقاداته اذا ما حددنا انها موجهة الى « كسل » الماركسيين . وهـذا الكسل يتجلى في ايمان الماركسيين بـأن الماركسية قد تكونت واكتملت ، وانه لم يعد هناك من جديـد يكتشف ، وان جميع الأسئلة قـد تم الرد عليها . لكن سارتر يعتقد ، كما رأينـا سابقاً ، ان الماركسية ما تزال فتية ، وانها بعيدة عن ان تكون قد تكونت واكتملت ، لأنها ، كالانسان ، لا تتكون نهائيـاً إلا في لحظة الموت . ولهذا يقول سارتر في « مسألة منهج » انه يعتبر الأفكار الماركسية « مبادىء موجهة ،

اشارة الى مهات ، مشكلات ، لا حقائق عينية ... في حين ان الماركسي المعـــاصر يجدها ، على العكس ، واضحة ، دقيقة ، وحيدة الدلالة ... انها تشكل بالنسبة له علماً مطلقاً ، في حـين ان الوجوديين يرون ، على العكس ، انه ما زال ينبغي ان يفعل كل شيء : ان يوجد المنهج وان يؤسس العلم » .

يقيناً ، إن الماركسية تسمح بتعيين مكان كتاب من الكتب أو سياسي من السياسيين تاريخيـــاً واجتماعياً . لكن الماركسيين لا يفهمون من « تعيين المـــكان » هذا إلا أنـه تحديد الشروط المادية لوجوده، والطبقة التي انتجته، وعلاقة القوى المتصارعة ، الخ . انهم يرون ان كل سياسة الجبليين ، على سبيل المثـال ، في الثورة الفرنسية يمكن ان تفهم إذا مـا علمنا انهم كانوا يمثلون الطبقة البورجوازية الأحدث عهداً والأكثر غنى التي دخلت في صراع مع الرأسمالية التجارية . واذا ما أرادوا أن يعينوا مكان كتاب ما ، فـــإن « المثالية هي التربة المغذية لجميع الإنتاجات البورجوازية » . ولعـل ما من شيء يدل على هذا الكسل ، على هــذا الفهم الكسول لعملية « تعيين المـــكان » ، مثل تفسيرات الماركسيين للوجوديـة نفسها . فهي في رأيهم لا تخرج عن كونها محاولة لشق طريق ثالث في مرحلة الامبريالية .

لكن مثل هذا المنهج لا يقنع سارتر لأنه منهج قبلي . فمـاذا تعني عبارة « مرحـــلة الامبريالية » ؟ وكيف تستطيع هــذه العبارة ان تفسر العديـــد من الاتجاهات الوجودية ، المتعارضة احيانــاً الى أبعد الحدود ، تعـارض هيدجر وسارتر من جهة ،

وغبرييـــل مارسيل وياسبرز من جهة اخرى ؟ وصحيح ان الماركسيين يملكون الوسائل لفهم الوجودية ، لفهم هيدجر على سبيل المثال ، لكنهم لن يفهموه ، لأنه يتوجب من أجل ذلـك ان يقرؤوه ، وان يدرسوه جملة جملة . لكنهم لن يفعلوا ذلـك بسبب « كسلهم » . واذا كان سارتر يلومهم على كسلهم هـذا ، فليس ذلك « باسم موضوعية بورجوازية بـــل باسم الماركسية بالذات » .

إن هذه النزعة « القبلية » ، نزعة إرجاع كل شيء الى ما هو اقتصادي مباشرة ودون توسط ، النزعة التي تجعل المـاركسي يعرف مسبقاً ما سينتهي اليه بعد التحليل ، توقع الماركسيين في أحابيل المثالية التي كرست الماركسية كل طاقتها للقضاء عليها ، توقعهم على وجه التحديد في فخ ذلك المذهب المثالي الذي فضحه ماركس بنفسه ، المذهب الاقتصادي الخالص .

ومن اشد أخطار هذه النزعة القبلية إرادة حذف كل الفروق الصغيرة بهدف الوصول الى الوحدة التيتلائم القوانين الماركسية . وهذا ما يفسر المجهود الذي يبذله الماركسيون دومـاً في سبيل إرجاع الخاص الى العام ، والمتنوع الى الموحد . إن المـاركسي المعاصر يعتقد انه سيضيع وقته إذا ما حاول ان يدرس فكراً بورجوازياً من خلال إصالته . ان « ما يهمه فقط هو ان يبين أن ذلك الفكر نمط من أنماط المثالية » . وعلى هذا فإنـــه يحل الخصوصية في العمومية ، أي يبدأ من العيني لينتهي إلى المجرد . في حين ان ماركس يحدد منهجه في رسالته الى الاشتراكي الألماني

لاسال بأنه « يرتفع من المجرد الى العيني » . لقد كانت كل غاية لوكاش ان يبين ان الوجودية تعبير عن أزمة الفلسفة البورجوازية في المرحلة الأمبريالية ، وإن حقيقة الوجودية العميقة ليست هي « الكينونة والعدم » او معارضة سارتر ليـــاسبرز ، بل هي المثالية . لكن ما يعتقد لوكاش انـــه هو العيني بالذات (أي الامبريالية الرأسمالية) انما هو تحديد مجرد ، مفهوم مجرد. إن لوكاش لم يكتشف شيئاً جديداً حين قال إن المذهب الذي يجمع أوسكار وايلد ومارسيل بروست وهنري برغسون وأندريه جيد وجيمس جوسي ، هو المذهب الذاتي ، ذلك ان كل مؤلف من هؤلاء المؤلفين يمثل وجهاً مستقلاً من وجوه الذاتيـــة . ونحن لن نفهم أعمالهم إذا ما جمعنا بينهم تحت اسم الذاتية ، بل إننا لن نفهمهم إلا إذا شرحنا وجوه التعارض بينهم ، أي إلا إذا درسناهم بشكل عيني ، آخذين كل واحد منهم على حدة .

يقول المثل السائر : « فسر الماء بالماء » ، وهذا على وجـــه التحديد ما تفعله الماركسية الكسول حـــين تضع كل شيء في كل شيء . ان الماركسي يعرف بول فاليري على سبيل المثال بأنـــه بورجوازي صغير . وهو بـــلا ريب بورجوازي صغير ، لكن ليس كل بورجوازي صغير هو فاليري : إن هاتـــين الجملتين ، في الحقيقـــة ، تسلطان الضوء على كل نقص الماركسية المعاصرة الإبداعي . اننا نعرف جميعاً جملة انجلز المشهورة : « لو لم يوجد نابليون ، لوجد غيره مكانه ... » . هذا هو المنطلق الأساسي للماركسيين المعاصرين ، لكن ما يغيب عنهم ، وما تريد ان تبينه

الوجودية،هو ان لويس نابليون بونابرت هو وحده ، لا غيره ولا اياً كان كما يـــدعي انجلز ، الذي كان يستطيع ان يلعب الدور الذي لعبه ، اعني بذلك نابليون العيني ، الواقعي ، لا نابليون المجرد ، المثالي ، الذي يستدعيه فراغ ما ليملأه .

ومن اهم مظاهر كسل الماركسيين المعاصرين مـــوقفهم من علمي النفس والاجتماع . انهـــم يرفضون علمي النفس والاجتماع لأنهما ، في نظرهم ، علمـــان بورجوازيان اخترعتهما الطبقـــة البورجوازية لتقطع الطريق على الماركسية التي هي العلم الشامل الذي ما بعده علم. وهذا الموقف السلبي من علمي النفس والاجتماع هو الذي يفسر فقر الدراسات الماركسية في هـذا الميدان . إن « الماركسيين المعاصرين لا يهتمون إلا بالراشدين : ويخيل لمـــن يقرؤهم اننا لا نولد إلا في السن التي نربح فيها أول اجر لنا . لقد نسوا طفولتهم الخاصة؛ وكل شيء يحدث ، حين نقرؤهم ، وكأن البشر يشعرون باستلابهم وتشيؤهم في عملهم الخـــاص اولاً ، في حين ان كل انسان يعيش هذا الاستلاب والتشيؤ اولاً ، عندمـا يكون طفلاً، في عمل اهله». والحقيقة ان التحليل النفسي وحده يتيح لنا ان نفهم الطفولة التي تتكون فيها الآراء المسبقة التي لا يمكن تجاوزها ، والتحليل النفسي وحده هو الذي يسمح لنـا بـــأن نجد الانسان كله في الراشد ، أي ليس تعيناته الراهنـة فحسب بل ايضاً « ثقل تاريخه » وماضيه . ومن الخطأ ان نظن ان التحليل النفسي يعارض المادية التاريخية . وصحيح ان بعض المفكرين المثاليين قد حاولوا مثل هذه المحاولة ، واننا وجـدنا

بعضهم يرجع الصراع الطبقي الى « عقدة نقص البروليتاريا » ، لكن اللوم في ذلك يقع على الماركسيين انفسهم إذ تركوا للمفكرين المثاليين احتكار المنهج التحليلي النفسي . والمادية التاريخية تستطيع ببساطة ، إذا ما شاءت ، ان تدمج التحليل النفسي بها ، ذلك ان التحليل النفسي لا يملك اساساً نظرياً ، بل هو قبل كل شيء « منهج يهتم ببيان الطريقة التي يعيش بها الطفل علاقاته العائلية داخل مجتمع معطى » . ولهذا فإن الوجودية تريد ان تسد هذه الثغرة في الماركسية، وان تدمج بها علم النفس كي تنزع من يد المثاليين هذا السلاح الفعال . والواقع ان علم النفس يسمح لنا بأن نفهم « نقطة دخول الإنسان الى طبقته،أي الأسرة الفريدة كتوسط بين الطبقة العالمية وبين الفرد » .

ثم ان الانسان الفريد مشروط أيضاً بعلاقاته الانسانية . انه يعيش شرطه الانساني من خلال انتمائه الى زمرة من الزمر . ومن التعصب والإكراه للواقع ان نرجعه فوراً ومباشرة الى طبقته ، دون ان نأخذ بعين الاعتبار الزمرة التي تربطه بطبقته. فالعامل بلا ريب مشروط بزمرته الإنتاجية ، لكنه مشروط ايضاً ، اذا كان يقطن بعيداً عن مركز عمله ، بزمرته السكنية . ومن المؤسف ان يكون الدارسون الماركسيون قد اهملوا هذه الحقيقة ، وتركوا لعلماء الاجتماع الاميركيين ميدان سبرها والاستفادة منها . ان الماركسيين يتهمون علم الاجتماع بأنه علم مثالي وسكوني ، وظيفته الوحيدة اخفاء التاريخ ، لكن ارباب العمل الاميركيين هم الذين يشجعون البحث نظراً لما يجدون فيه

من فائدة لهم . لكن هذا لا يوجب ان نرفض هذا العلم لأنـــه « سلاح طبقي في أيدي الرأسماليين » وهـــو « إذا كان سلاحاً فعالاً – وقد أثبت أنه كذلك – فهذا لأنه صحيح الى حد ما . وإذا كان في أيـــدي الرأسماليين ، فهذا سبب آخر يحدونا الى انتزاعه منهم والى توجيهه ضدهم » .

إن علم الاجتماع يكون مثالياً ومعارضاً للماركسية ،لا بتأكيده الاستقلال المؤقت لمنهجــه بل ، « بتأكيده الاستقلال الجذري لموضوعه ». ولكن إذا ما دمجنا اللحظة السوسيولوجية بالتوحيد الكلي التاريخي ، ذلك التوحيد الذي تحققه الماركسية كنظرية جدلية شاملة ، فإننا نكون قد حذفنا التعارض الذي يريد ان يقيمه المثاليون بين علم الاجتماع والماركسية من جهـــة اولى ، وحافظنا من جهة ثانية على استقلال علم الاجتماع نسبيـاً . ولعل الفائدة الاولى لعلم الاجتماع هي انه يضعنا على تماس مباشر بما هو عيني . ان الدراسات التي أجراها كاردنر على سكان جزر الماركيز قد كشفت له عن حقائق لا يمكن لأي منهـج آخر ان يكشف عنها . فنسبة النساء الى الرجال في تلك الجزر هي نسبة (١٠٠) الى (٢٥٠) . ومن هنـــا كان انتشار تعدد الأزواج في تلك الجزر . وليس ذلك فحسب ، بل انه يذهب الى أبعد من ذلك ويبين ان ندرة النساء أدت الى انتشار اللواطية ، وان هذه اللواطية ليست مجرد إشباع للغريزة الجنسية بـل هي أيضاً نوع من الانتقام ضد المرأة القاسية ، ويبين أخيراً ان تعدد الأزواج أدى إلى انقلاب العاطفة تجاه الأولاد ، فليست الأم هي الحنون

تجاه اولادها بل الأب ، على خلاف الحال في البلاد المتمدنة التي يقوم عماد الرابطة العائلية فيها على الأب . فاللواطية وحنان الأب تجاه الأولاد هما ظاهرتان غير قابلتين للإرجاع ، انهما ظاهرتان معاشتان . وإذا كان المنهج الماركسي لا يعترف بوجود ظواهر غير قابلة للإرجاع ، وإذا كان بالتالي لا يستطيع أن يفسر ظاهرة اللواطية على سبيل المثال في المجتمع الماركيزي ، فهذا لا يدل على نقصه كمنهج ، بل يدل على نقص في تطوره ونموه . وبالطبع هذا لا يعني ان كاردنر على حق في كل ما انتهى اليه ، وبخاصة حين يدعي ان منهجه الاجتماعي يستطيع ان يحل محل الماركسية ، ذلك لأنه يتناسى واقعة أساسية ألا هي أن ندرة النساء هي شرط مادي واقتصادي حقيقي .

على هذا فإن علم الاجتماع ، بما يملك من طرائق مساعدة كالاستقصاء والروائز والإحصاء ، وباعتباره لحظة مؤقتة من التوحيد الكلي التاريخي ، « يكشف عن توسطات جديدة بين البشر العينيين وشروط حياتهم المادية، بين الأشخاص والطبقات » . وعلى كل حال ، فإن المسألة ليست مسألة إضافة منهج جديد الى الماركسية ، بل ان الفلسفة الجدلية ستتمكن من نفسها إذا ما نمت وتطورت حتى تحقيق التركيب.

وأخيراً نستطيع ان نلخص مآخذ سارتر على الماركسية في إهمالها ما هو عيني ، وعدم فهمها للتوحيد الكلي التاريخي إلا على انه عملية تعميم وتجريد. ونتيجة ذلك أنها « فقدت معنى ما هو الإنسان ، ولا تملك ، لسد ثغراتها ، إلا علم النفس البافلوفي

الباطل » . لكن يحق هنا للقـــارىء ان يتساءل : لمَ توقفت الماركسية ؟ لمَ استسلم الماركسيون الى الكسل ؟ لقد وجـــدنا سارتر يقول ، آنفاً ، ان الماركسية توقفت لأنهـــا على وجه التحديد فلسفة عملية ، وإن الانفصال بين النظرية والتطبيق هو الذي أدى إلى جمود المذهب . لكن لم حدث هــذا الانفصال ؟ هذا ما سنجيب عليه في الفصل التالي .

شبح ستالين

لا شك في ان من أهم الأحداث السياسية التي عاشها البشر بعد الحرب العالمية الثانية ثورة المجر عـــام ١٩٥٦ . لقد قلبت هذه الثورة المفاهيم ، لا مفاهيم البورجوازيين والمثاليين فهم كانوا دوماً أعداء النظام الاشتراكي ، بل مفاهيم الماركسيين بالذات ، الماركسيين الذين استيقظوا صبيحة يوم من الأيام ليجدوا انهم ، رغم كل حرصهم على الماركسية ، مـــا كانوا ماركسيين البتة : إنمـــا مجرد ستالينيين . إن الستالينية ليست هي المسؤولة عن جميع أخطاء النظـــام الاشتراكي وتعسفه فحسب ، بـل هي مسؤولة أيضاً عن تصلب العقيدة الاشتراكية وتحجرها . ولقـد كانت أحداث المجر هي الشرارة التي فجرت العقد المكبوتة منذ زمن بعيد. ولهـذا تلت هذه الأحداث موجة من الانسحابات من الأحزاب الشيوعية وموجة من الاعترافات والنقد الذاتي. وصار لا بـد من الكلام ، ومن الكلام بعنف . وكان سارتر من بـــين

المتكلمين . بل أكثر من ذلـــك : فقد كرست مجلته « الأزمنة الحديثة » ثـــلاثة اعـــداد لتسليط الأضواء على ثورة المجر ، وصدرت هذه الاعداد الثـلاثة مجتمعة معـــاً في كانون الثاني ١٩٥٧ في مجـــلد واحد بلغ عدد صفحاتـــه خمسمائة من القطع الكبير . وفي ذلـك العدد نشر سارتر دراسة بمئـــة وعشرين صفحة تحت عنوان « شبح ستالـــين » . وهي دراسة هامـــة للغاية ، رغم طابعها المؤقت ، لأنهـا درست ، من بـــين مـــا درسته ، الظاهرة الستالينية تاريخياً . وإذا كنا سنعود فيما بعـد الى رأي سارتر بثورة المجر ، فإننا لن نهتم هنا إلا بذلك الجزء من دراسته الذي خص به الستالينية ، لأن ذلـــك الجزء لا يفسر الخلفية الـــكامنة وراء السياسة السوفياتية في أوروبا الشرقية فحسب ، بل يفسر أيضاً كل التصلب العقائدي الذي اصيبت به الماركسية على أيدي الستالينين .

ولا نغالي إذا قلنا إن سارتر يثبت في هذه الدراسة انه أكثر ماركسية من الماركسيين ، أو إذا شئنا ، أكثر تفهماً لها منهم . ذلك أنـــه لا يبين أخطاء الستالينيين وتورطـاتهم على الصعيد النظري فحسب ، بل انه ، وعملاً بالمبدأ الماركسي القائل إن الفلسفة تولد من التطبيق لترتد إليه وتنيره ، أقول انـه يدرس الشروط الماديـــة والظروف الاجتماعيـــة التي أدت الى نشوء الستالينية . وبهذا يكون قد حقق في نقده للشيوعيين مـــا لم يحققوه هم عندما نقدوه : انه لا ينتقد تحجرهم العقائدي والمذهبي فحسب ، بل يبين أيضاً أن هذا التحجر هو نتيجـــة لظروف

عينية معينة . فما هذه الظروف ؟ هنا سنترك سارتر يحدثنا[1] :

رغماً عن كل التكاليف التي اقتضاها التصنيع في الاتحاد السوفياتي ، فلقد كلف من التضحيات الانسانية أقل مما كلفت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية . لقد كان على الاتحاد السوفياتي ، ذلك البلد المتخلف ، الزراعي، المحاصر ، أن يدخل في سباق مع الزمن ويصنع نفسه رغم الحصار الاقتصادي ورغم التهديد الدائم بعدوان مسلح . فإلى أي حد كان هذا « الحصن المحاصر » يستطيع أن يصمد ، مع أقل عدد ممكن من الضحايا ؟ لن يستطيع أحد الإجابة على هذا السؤال ، لكن المؤكد أن القادة الشيوعيين قد تحملوا مسؤولية النظام كاملة في عظمته وفي عيوبه . إن البورجوازي يدعي أنه غير مذنب ، لأنه ليس هو الذي يصنع العالم ، وكل ما يفعله هو أنه يخضع لقوانين الاقتصاد التي لا تعرف من شفقة ، لكن الثوريين السوفياتيين فهموا أن الاشتراكية غير منفصلة عن التخطيط : ولهذا وهبوا أنفسهم جسماً وروحاً الى التخطيط ، وأصبحت الخطة هي الحكومة الحقيقية. ولم يكن هذا الموقف ، أعني وقوع الإدارة في استلاب مشروعها ، إلا ليزيد التناقض الأساسي في المجتمع السوفياتي : التناقض القائم بين مصالح البناء الاشتراكي الطويلة الأمد وبين المصالح الفورية للطبقة العاملة . إن حاجات العامل ، في المجتمع

---

١ ـ ما يلي من الكلام هو ترجمة ملخصة لتحليل سارتر للظاهرة الستالينية من خلال عرضه لمأساة المجر في مقالة « شبح ستالين » .

الرأسمالي ، لا يمكن ان تتأكد إلا إذا وجهت اصبع الاتهام الى الاستغلال ، ولا يمكن ان تشبع إلا اذا أنقصت من الربح وهددت رأس المال. لكن الهم الأول للمسؤولين السوفياتيين هو تحقيق الشروط المادية التي تسمح بحل المشكلات التي خلقتها الثورة . والحال ان للعامل مطالب مباشرة هي غير مطالب التخطيط الطويل الأمد . فهو قد يطالب بزيادة الأجور او تحسين ملابسه وسكناه ، أي انه قد يطالب بتنمية الصناعات الاستهلاكية في بلد سيهلك اذا لم يعط الأولوية للصناعة الثقيلة . إن الثورة ، مهما تكن ، لا تصنع معجزة ، بل هي ترث البؤس الذي سببه النظام القديم المقوض . وبالطبع فإن التعارض لا يقوم فقط بين الخطة ، وهي الشرط الضروري للتقدم نحو الاشتراكية ، وبين العامل باعتباره قوة منتجة ونظاماً من الحاجات . بل ان الصراع قائم في كل منهما : ذلك أن العامل يريد تحقيق الاشتراكية في الوقت نفسه الذي يريد فيه إشباع حاجاته . انه يرضى ، باسم الاشتراكية ، أن يضغط على حاجاته ، ومن الممكن أن تطلب منه تضحيات كثيرة . إن العامل ، في النظام الرأسمالي ، يهدف من خلال مطالبه العينية الى قلب البورجوازية وتشييد دكتاتورية البروليتاريا ، وعلى هذا فإن الأهداف البعيدة تعطي حاجاته المباشرة معناها ، وحاجاته المباشرة تعطي هذه الأهداف محتواها الواقعي . أما في فترة البناء الثوري ، فإن للاشتراكية بالنسبة للعامل أساساً متيناً : جعل ملكية وسائل الانتاج اشتراكية . إنه يعرف أن

جهوده ستفيد الطبقة العاملة إن آجلاً أو عاجلاً ، ولا يعود الشغل يبدو له قوة عدوة ، بل رابطة عينية بين مختلف الفئات الاجتماعية . وتفهم الموقف وضروراته يجعله مستعداً للضغط على حاجاته ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ويجعله يعتبر تعبه حدثاً خاصاً يعنيه وحده ، في حين انه كان يرى فيه ، أيام الاستغلال البورجوازي ، تعبيراً عن تعب طبقته قاطبة . لكن هذا لا يمنع أن يكون قد حدث انفصال بين أهدافه الاشتراكية والضرورة المعاشة لمطالبه . ومثل هذا الانفصال ، هذا الطلاق ما كان ليحدث لو اندلعت ثورة تشرين الأول ١٩١٧ في المانيا أو انكلترا بدلاً من روسيا باعتبار أن هذين البلدين كانا مصنعين . لكن ما دام كان واجباً على الاتحاد السوفياتي أن يصنع نفسه قبل كل شيء ، فقد كان لا بد أن يمضي وقت طويل قبل أن تؤدي مجهودات كل فرد وتضحياته الى نتيجة ملموسة ، أعني بها رفع مستوى المعيشة . وهذا التمزق الواقعي للشغيل في المرحلة الأولى للبناء الاشتراكي يدل عليه أوضح الدلالة ذلك النوع من التنظيم الذي وجد في بولونيا حيث تعيش جنباً الى جنب مجالس إدارة وأجهزة نقابية ينتخبها العمال أنفسهم . وعلى هذا فإن التناقض الاشتراكي يستوجب ضرورة وجود تمثيلين في آن واحد معاً للعمال في بعض المصانع : فالتعارض الدائم بين لجنة الإدارة والنقابة يظهر موضوعية الصراع الذي يعيشه كل عامل بشكل غامض . وربما كان هذا التمثيل المزدوج قادراً على تجاوز التناقض ، لكن لم يكن له من مجال في الاتحاد السوفياتي في

الأيام البطولية لمشاريع السنوات الخمس الأولى . فقد كانت البروليتاريا تتضخم يومياً بأفواج الفلاحين الأميين الذين يهجرون الأرياف بعامل السياسة المركزية . وكانت الحرب الأهلية قد قضت على نخبة الطبقة العاملة . وكانت هذه الجماهير غير المثقفة سياسياً ، لا تعي مهماتها ومستقبلها ، وتتحدد قبل كل شيء ، ونظراً الى ما تشكو منه من سوء تغذية ، بحاجاتها . وكان لا بد أن يمتد هذا التناقض الى التخطيط : كان القادة الشيوعيون يعرفون أن للحاجات البشرية بالغ الأهمية ، لكنهم كانوا يرون أيضاً وجهها السلبي الذي يميل الى عرقلة الإنتاج . وهكذا كان الخبراء هم الذين يحددون للجماهير ما يناسبها ، فاستحالت هذه الجماهير بالتالي الى موضوع سلبي غير واعٍ للتناقضات التاريخية بينما صار المسؤولون يقررون مدى عمليات التوظيف ومستوى المعيشة عن طريق « حساب عقلي » محض .

وفي الوقت نفسه يولد التصنيع انقلاباً ديموغرافياً يتطلب نمواً في الإنتاجية الزراعية . وهذه التغييرات تظهر للوجود التناقضات التي تعارض بين العمال والقرويين : فالأوائل لا يستطيعون أن يعوضوا عن نقص الأجور وعدم كفايتها إلا عن طريق تخفيض أسعار المواد الزراعية، وبالمقابل يطالب الفلاحون بتخفيض أثمان السلع المصنوعة. وتجد الحكومة نفسها مرغمة على تحويل الزراعة الى زراعة جماعية : فالمشاريع الكبيرة ذات مردود أكبر ومراقبتها أسهل . وتدعم الطبقة العاملة بدون تحفظ سياسة العنف هذه التي تخدم مصلحة التجمعات المدينية .

ثم إن العمال الصناعيين يعتبرون تأميم المشاريع أكبر نصر للبروليتاريا : فالزراعة الجماعية تبدو لهم نتيجة حتمية لتأميم الصناعة . في حين ان القرويين ، على العكس ، لا يكفون عن مقاومة ما يعتبرونه مصادرة واستملاكاً من قبل الدولة للأراضي. والواقع ان كلا الطرفين كانا خاضعين لسلطة التخطيط غير المشروطة . إلا أن التخطيط لم يحل دون قيام صراع طبقي حقيقي بين العمال والقرويين تحول في النهاية الى حرب أهلية ولم تستطع عمليات النفي والإعدام ان تحذف هذا الصراع ، مما اضطر القادة السوفياتيين ، بدءاً من عام ١٩٣٠ ، إلى فرض دكتاتورية حديدية باسم البروليتاريا على طبقة الفلاحين المعادية .

ومن هذا التناقض المزدوج ولدت الستالينية . فالتخطيط أولاً يولد أدواته الخاصة : اعني البيروقراطية . ومن السخف الزعم أن هذه البيروقراطية تستغل البروليتاريا ، وأنها طبقة . وليس صحيحاً أيضاً ان همها الوحيد الدفاع عن مصالحها . صحيح أن أجور اعضائها مرتفعة ، لكنهم يهترئون بسرعة ، إذ أنهم يعملون اكثر من العمال زمنياً . ان التخطيط هو الذي يبرر امتيازاتهم ، ومصالحهم المادية والمعنوية متعلقة بتنفيذ الخطة . وطموحهم الشخصي لا يتميز عن إخلاصهم للاشتراكية التي يتصورونها تخطيطاً مجرداً ، أي تنمية مستمرة للإنتاج . وهذا الاستلاب هو الذي يسمح لهم بأن يعتبروا انفسهم الناطقين بلسان ما هو عام وعالمي ، وبالمقابل فإن مطالب الجماهير تبدو لهم ، هذا إذا ما أخذوها بعين الاعتبار ، حوادث عارضة

خاصة ذات طابع سلبي . ومن هنا كان التناقض في موقفهم : فهم يمثلون ما هو عام بقدر ما يريدون ان يسيروا بالبلد قاطبة في بناء الاشتراكية ، لكنهم يمثلون أيضاً وضعاً خاصاً بقدر ما قطعتهم وظيفتهم عن الشعب الروسي وعن حياته العينية . ويدعي الحزب أنه يلعب دور الوسيط بين هؤلاء « المنظمين » وبين الجماهير . والواقع انه كان دوماً يحاول ان يمنع البيروقراطية من الانحراف بواسطة « التطهيرات » ومن ان تظهر بمظهر المستقل . لكن الحزب في الوقت نفسه هو التعبير السياسي عن التخطيط . انه يحرض الجماهير بواسطة دعاوته ، لكنه لا يعكس مصالحها المباشرة ولا مطالبها ولا التيارات التي تتنازعها . وهكذا تنغلق الجماهير على نفسها وتسقط حياتها الواقعية في نوع من السرية : وهذا الابتعاد يولد عدم ثقة متبادلة. وهكذا راح القادة يتساءلون عن الطريقة التي يستطيعون بها أن يحرضوا الجماهير على الإنتاج،ووجدوا الحل المصطنع في ما يسمى بـ « أبطال العمل » ، وهم عبارة عن نخبة من العمال تدفع لهم مكافآت عالية لمردودهم الإنتاجي المرتفع . لكن هذا الحل ، كما قلت ، مصطنع ، لأن الشرط الأساسي لرفاهية « أبطال العمل» هؤلاء هو قلة عددهم .

ويضطر القادة تحت ضغط ضرورات بناء الاشتراكية الى اساءة تقدير الطاقة الثورية للبروليتاريا . ويؤثرون عليها من الخارج ، بواسطة الدعاوة أو الإكراه . وتنتمي الجماهير العمالية، من جانبها ، الى النظام ، لكنها لا تمنح البيروقراطية ثقتها .

وهكذا لا تعود البروليتاريا الذات المحركة للتاريخ ، بـــل ولا الهدف العيني لبناء الاشتراكية : بل تشعر انها الموضوع الرئيسي لتحضيض الادارة والوسيلة الاساسية للبناء الاشتراكي . وهكذا تظل الاشتراكية « واجبها » الطبقي ، وتكف عــن ان تكون واقعهـــا العيني . لكن البيروقراطية تغرق اكثر فأكـــثر في شراستها ، وتتابع دوئما كلل التوحيد الذي تقوم به . والحقيقة ان الخطة هي فرضية خاضعة باستمرار لإشراف التجربـــة ، وينبغي ان تعدل دوماً ملاءمة لها مع التجربة نفسها . والسرعة التي ينبغي ان تتم بهـــا الاصلاحات تستلزم الموافقة الشامـــلة للمنظمين . وهـــذه الموافقة وحدها تستطيع ان تمنع الانحراف المؤقت من ان يطرح نفسه بشكل مستقل ، من ان يتحـول الى اتجاه ، وهي وحدها تستطيع ان تجعل القادة خاضعين دومـاً للموضوعية . ثم ان التهديدات الآتية من الخارج كانت تتزايد ، والجماهير الفلاحية تعاند أكثر فأكثر في موقفها العدائي. وهكذا كان لا بد من تشديد القبضة . والحـال ان الزمرة الدكتاتورية ينبغي ان تمارس أولاً دكتاتوريتها على نفسها . وعلى هذا ، فإن الخطر الخارجي والمقاومات الداخلية تتطلب اتحاد القادة اتحاداً لا انفصام فيه . ولما كان «المنظمون» بلا جذور عميقة وبلا دعم حقيقي ، فإنهم لن يستطيعوا الحفاظ على سلطتهم ولـن يؤمنوا السلامة الوطنية ، الا اذا حققوا من الداخل سلامتهم الخاصة . ومن هنا كان ذلك التناقض الغريب : فقـد أصبح كل منظم من المنظمين مشبوهاً في نظر سائر الآخرين . لكن شخصاً واحـداً

يستطيع ان يصبح المثل الأعلى لعملية التوحيد الاجتماعية . وفي اللحظة التي يعتبر فيها كل فرد نفسه غير اساسي بالنسبة للزمرة المنظور اليهـا على انها كلية ، يتوجب ان تظل هذه الكلية مجرد رمز ، أو يتوجب ان ينحل تعدد البشر ويتحد في الوحـدة المقدسة لفرد اساسي . وعلى هذا فإن عبادة الشخصية هي قبل شيء عبادة الوحدة الاجتماعية في شخص فرد واحد . وليست وظيفة ستالين ان يمثل عدم قابلية الزمرة للتشتت ، بـل ان يكون عدم قابلية التشتت هذه بالذات ، وان يخلقها في الوقت نفسه . ولا يستطيع أحد ان يدهش من ظهور هـذه العبادة الفرديـة في نظام يفضح ويرفض الفرديـة ، ذلك ان هـذه العبادة هي على وجه التحديد نتاج هذا الرفض . ان ستالين لا يبدو في البداية وكأنه فرد متفوق على الآخرين ، بل على العكس شبيهاً بالجميع . انه لا يمثل كرامة الشخص ، كما هو شأن الفردية البورجوازية ، بـل يمثل الاندماج الاجتماعي الى الحد الاقصى . وعدم قابلية الانحلال هذه هي التي تجعل منه عامـل التوحيد الوحيد الممكن ، ذلك ان الوحدة وحدها هي التي تستطيع أن توحد ما هو متعدد . انه ، باسم الجميع ، سيرتاب في كل واحد . لكن الزمرة لنا ترتاب فيـه . فهو لو كان من ضمن اعضاء البيروقراطية ، لما مثل إلا التعدد والانقسام . أما وانـه يقف فوقها ، فإنه يعكس لهـا صورة الوحدة الجماعية المستحيلة . ان يد ستالين اليمنى لا ترتاب في يده اليسرى ولا أذنـه اليسرى بأذنه اليمنى . ان ستالين لا يستطيع ان يصبح الجاسوس على

ستالين ، ولا ان يكف عن ان يكون على وفاق مع ذاتــــه . والزمرة لا تستطيع ان تصمد بدون ثقة . ولا يكفي ان نقول انها تثق بستالين ، بـــل انها تكون ثقتها الخاصة من الثقة التي لستالين بنفسه . وهذه الثقة ، لا يتمتع بهـا أي انسان باستثناء ستالين نفسه . لكن كل واحد يعرف ان الجماعية البيروقراطية موجودة في الأعلى ، في شخص ستالين ، تحت شكل انـــدماج كامل بعد ان تمت المصالحة . وعلى هذا فإن كل عضو من اعضاء البيروقراطية لا يرى في ستالين تأليهاً للشخص الانساني ، بـــل انه يكتشف في عصارة الجماعية هذا السلب الجـــذري لشخصه الخاص لمصلحة الوحدة . ان الحركة الصاعدة التي تـــذهب من الزمرة الى ستالين تتميز اذن بتدمير الفردية تدميراً شامـــلاً . وبالمقابل هناك حركة نازلة : إن ستالين لا يستطيع ان يحـــل مشكلة الاندماج الا إذا دفـع التسلسل الاجتماعي الى حـــده الاقصى . فمن أعلى السلم الى أسفله ، وبطريق مباشر أو غــير مباشر ، يستمد المسؤولون سلطتهم منه . وهكذا نجـــد « الشخص » الانساني يولد من جديد ، لكن ليس لهذا الشخص من علاقة بالفرد البورجوازي ، ذلك لأنه لا يستمد وجـوده من نظام عالمي ، بل من الشخص الوحيـــد الذي تضعه ضرورات الاندماج فوق الجميع. إن واقعـه يتأتى له من وظائفه بالذات. انه يظل ، في علاقاته مع اقرانـــه ، عامـــل تعدد ، وبالتالي موضوعاً لعدم الثقة . لكنه بالنسبة لمرؤوسيه اقنوم ستالـين ، وبالتالي عامـل توحيد وموضوع عبادة . وعلى جميع مستويات

التسلسل ، نجد التناقض نفسه ، فالفرد عينه يطرح ذاته كقوة تركيبية تجاه مرؤوسيه وينكر واقعه الحي في علاقاته مع رؤسائه . وعلى كل الاحوال ، فإن ما يؤسس الشخص السوفياتي ويهدمه في آن واحد معاً ، انما هو وحدة الزمرة المستحيلة . وستالين وحده وحدة خالصة : انه الفعل . وما يعبد فيه ليس صفاته الخاصة ، شأن النازيين في عبادتهم هتلر ، ذلك ان عبادته ليس فيها من جانب صوفي البتة : إن هذه العبادة تتجه الى وحدة واقعية باعتبارها قدرة على التوحيد . وهي بالأصل لا تنفصل عن الإرهاب : لما كان ستالين يجسد الريبة الجماعية فإنه لا يستطيع ان يقضي على التعدد إلا بمحاولة تقليصه . ان المقابل السلبي للتسلسل ، هو ذلك الارهاب الدوار الذي تمارسه البيروقراطية على نفسها بيد ستالين ، والذي يعبر عن نفسه بالتطهير والنفي .

إن « الاشتراكية في بلد واحد » او الستالينية لا تشكل انحرافاً في الاشتراكية : بل هي الشكل الذي فرضته الظروف. ان وتيرة وتطور هذا البناء الدفاعي لا تحددهما اعتبارات الموارد والحاجات السوفياتية وحدها، بل تحددهما أيضاً علاقات الاتحاد السوفياتي مع العالم الرأسمالي ، وبكلمة واحدة ، الظروف الخارجية الغريبة عن بناء الاشتراكية . وتناقضات هذه المرحلة الاولى تثير معركة طبقية بين العمال والفلاحين وتقطع المسؤولين عن الجماهير الشغيلة. وهكذا يتم تشييد نظام تعسفي وبيروقراطي يضحى فيه بكل شيء لحساب الانتاج . وهذا النظام يعكس تناقضاته في بناء الفوقية العقائدية : انه يدعي انه ينتهج

الماركسية – اللينينية ، لكن هـذا الغطاء لا يستطيع ان يخفي الازدواج في الحكم على قيمة الانسان والاشتراكية . فالدعاوة وروايات « الواقعية الاشتراكية » الوردية تدعو ، من جهة أولى، الى تفاؤل مقرف : فكل شيء خيّر في البلاد الاشتراكية ، ولا صراع الا الصراع بين قو الماضي وبين القوى التي تبني المستقبل . وعلى هـذه القوى الاخيرة ان تنتصر بالضرورة . ان حركة التـاريخ تنقذ كل شيء : الفشل ، الألم ، والموت . ولقد كان مطلوباً لفترة من الزمن ان تكتب روايات خاليـة من الصراع . وعلى كل الأحوال ، فإن البطل الإيجابي يجهل المصاعب الداخلية والتناقضات . انه يساهم ، من جانبه ، دونما خور ولا اخطاء ، في بناء الاشتراكية ، ونموذجه هو عامل المصنع الذي يبذل كل جهده لزيادة الانتاج . وإذا كان جندياً فـإنه يجهل الخوف . إن هذا الأدب الذي يصف نفسه بأنه ماركسي ، يصور لنا سعادة مجتمع بلا طبقات. هذا من جهة، اما من الجهة الثانية فإن ممارسة الدكتاتورية وتناقضات البيروقراطية الداخلية تـولد بالضرورة تشاؤماً لا يستطيع إفصاحاً عن اسمه : فما دام الحكم بالقوة ، فلا بد ان يكون البشر أشراراً . إن أبطال العمل ، والموظفين الكبار المتفـانين في اخلاصهم ، ومناضلي الحزب المستقيمين الطاهرين ، تكفيهم نفخة واحدة كيما تطفىء فضائلهم المشتعلة : فها هم مناوئين للثورة ، جواسيس ، عمـلاء للرأسمالية . ان العادات النزيهة والاستقامة وثـلاثين سنة من الاخلاص للحزب البولشفي ، لا تستطيع ان تحميهم من التجربة والاغراء . وإذا

ما ابتعدوا عن الخط ، فسرعان ما سيتبين انهم كانوا مجرمين منذ ولادتهم . والأعمال الكبيرة التي كللتهم بالمفـــاخر والتقريظ ، يتضح فجأة انها كانت جرائم : فعلى المنـــاضل اذن ان يكون دوماً مستعداً لتغيير جميع الاحكام ولاحتقار الانسان الذي كان بالأمس يرفع إلى السماوات السبع ، دون ان تـأخذه الدهشة من انه كان مخدوعاً به مدة طويلة جداً : من الواجب ، في هذا العالم الغـامض المشوش ، أن تؤكد حقيقة اليوم بقوة اكبر كلما كثرت احتمالات تحولها إلى خطأ في الغد . وعلى الدولة ، البعيدة عن ان تتـلاشى ، ان تتدعم باستمرار : وسيتم تلاشيها حـــين تكون التربية الاستبدادية قـــد حولت الاكراهات الخـارجية إلى اكراهات داخلية يمـارسها كل فرد على نفسه . وليس هو تحرر البشر الذي سيفقد الدولة جدواها ، بـل هو خضوعهم الذاتي : انها لن تختفي ، بـل ستنتقل الى القلوب . وهذا الارتيـــاب بالانسـان هو ما يعبر عنه ذلك « الخطـأ النظري » المشهور الذي ارتكبه ستالين : اعني بـــه قوله ان الصراع الطبقي يشتد في مرحلة البناء الاشتراكي . لقد زعم البعض انه كان يريد بذلـك ان يبرر « تطبيقه » . لمـــاذا ؟ انه التطبيق ، هنا ، الذي يولد نظريته الخاصة. ثم ان هذا التشاؤم ظاهر في السياسة الخارجية. ان الاتحاد السوفياتي لا يريد الحرب ، لكنه يراها قادمة : ولقد كان على حق لأن جيوش هتلر قـد كسحته عام ١٩٤١ . لكن هذا التخوف الذي كان في محله ادى إلى تبسيط غليظ للمشكلات: فالعالم الرأسمالي ، البعيد ، المجهول تقريباً ، يصبح قوة تدميرية

خالصة تتابع دونما رأفة ابـــادة الشعب السوفياتي وتصفية الاشتراكية بالسلاح . وصحيح ان القـــادة السوفياتيين كانوا ما يزالون يتحدثون عن التناقضات وعن المنـــازعات ، وعن قوى السلام التي تعـــارض قوى الحرب في الغرب ، لكنهم يتكلمون دون ان يؤمنوا بمـــا يتكلمون عنه ، وبخاصة بعد فشل سياسة الجبهات الشعبية : ذلك ان السياسة الوحيـــدة الموثوقة ، في حالة الانعزال المحكوم بها على روسيا الاشتراكية ، هي التسلح ، والتسلح باستمرار ، كما لو ان الحرب ستقع غـداً : وهكذا كان على السياسة الداخلية والخارجية ان تنهج طريقها باستمرار آخذة بعين الاعتبار اخطار الـكارثة ، لا فرص السلام . وما لم يلحق الاتحاد السوفياتي بالامم الغربية ، فإن عليه أن يظل وفياً للمبدأ اللاتيني المتشائم القائل : « الأسوأ هو الأكيد دوماً » .

فهل ينبغي بعد هذا أن نسمي اشتراكية ذلك المسخ الدموي الذي يمزق نفسه بنفسه ؟ انني اجيب بصراحة : اجل . بل انها الاشتراكية في مرحلتها البدائية ، ولم يكن هناك من اشتراكية غيرها ، اللهم إلا في سماء افلاطون التخيلية. وعلينا ان نريد هذه الاشتراكية بالذات او لا نريد الاشتراكية مطلقاً .

هذه هي قصة الاشتراكية في مرحلتها البدائية ، الاشتراكية في بلد واحد . اما المرحلة الثانية فتبدأ مع نهاية الحرب العـالمية الثانية عام ١٩٤٥ . إن البناء الاشتراكي في هذه المرحلة سيظهر بمظهر جديد ، أولاً لأن الاتحاد السوفياتي قـد نجح في التصنيع الذي استلزم تضحيات كبيرة ، وثانيـــاً لأن الاشتراكية لم تعد

وقفـــاً على الاتحاد السوفياتي ، فقد ظهرت هناك كتلة أوروبا الشرقية المستوردة ، ثم قامت ثورة الصين الشعبية .

والحقيقة إن فشل الاتحاد السوفياتي ، في عام ١٩٤٥ ، يعود الى انتصاره : فلقد حصل ، في مؤتمر يالطــا ، على منطقة نفوذ أتاحت له الفرصة ، للمرة الأولى ، كيا يهيمن على مجموعـــة من الامم الأجنبية . لقد كانت تلك القوة القارية الضخمة ، منغلقة على ذاتها ، وقد سيطر عليها الخوف من التطويق ، ولم تكن تفتش عن الخلاص إلا في التسلح الزائد ، وفي توثيق روابطهـا الداخلية . إنها لم تشعر قط بالحاجة الى ان تمد نفوذهـــا خارج حدودها ، ولم تتح الفرصة أصلاً لذلك ، وحتى الحرب ربحتهـا فوق أرضها . كانت تخـاف ان تخرج من عزلتها ، وكان ستالين يخشى على جنوده من الاحتكاك بالغرب ، لكنه خلافاً لمـا كان يتوقع لم يحدث أي هرب من الجندية . وكان الاتحـاد السوفياتي يرتاب في حلفـائه الشرقيين في الوقت نفسه الذي كان يطلب فيه صداقتهم . ولقد كان بعضهم عدو الأمس . وكان معظمهم يمثل له صورة بنيته القديمة : كثير من الفلاحين ، قليل من العمال، ولا وجود لأي شيوعي في رومانيـا والمجر . وكان الروس قد تمنوا كثيراً حوالي عـام ١٩٢٠ قيام الثورة العالمية كيلا يحقدوا على البروليتاريات الأوروبية لأنها لم تقم بها . وتولى الجيش الأحمر في كل مكان تحقيق الثورة. ولم تكن المسألة آنذاك مسألة تصدير للاشتراكية بل مسألة إيجاد أنظمة شعبية تحمي نفسها بدفاعها عن الاتحاد السوفياتي . وهكذا تكونت في كل مكان حكومات

متحالفة ، الشيوعيون فيها اقلية ، وليس لهم من نفوذ الا سراً.

وجاء مشروع مـارشال ليغير كل شيء . لقد كشفت هذه المناورة الحربية عن حقيقة تبعث على القلق: ان الولايات المتحدة تستطيع ان تساعد اولئك الفلاحين المعوزين، في حين ان الاتحاد السوفياتي لم يكن يملك الوسائل لتجهيزها . ولم يكن التضـامن السياسي الذي توطـد بمشقة كبيرة ليستطيع ان يقف في وجه التضامن الاقتصادي الذي يقترحه الغرب . ولما كانت الحكومة السوفياتيةعاجزةعن مواجهة التحدي فقدكان امامها أحد أمرين: إما ان تتخلى عن حلفائها او تحتفظ بهم بالقوة . واختارت أن تشد أواصر سيطرتها ، وأن تؤمن في كل مكان دكتـاتورية الشيوعيين ، وتدفع بالدول الدائرة في مدارها الى طريق البناء الاشتراكي .

ولقد كانت على صواب تام : ففي ذلك الزمن كان ميزان القوى في غير مصلحة الاتحـاد السوفياتي . ولو رجعت الدول الشرقية « التابعة » الى النظام الرأسمالي ، لكان في ذلك تجديد لخطر تطويق الاتحاد السوفياتي . لكن لمـا كان السوفياتيون لا يملكون الوسائل لا لمحاربـة ذلك التغلغل الاقتصادي الذي يمثله مشروع مارشال ، فقد اضطروا إلى معارضته بالقوة والإكراه. وهكذا خسروا على جميع المستويات . وعرفت الدعـاوة الرأسمالية كيف تستغل نقطة الضعف هـذه ، فراحت تتهم الاتحاد السوفياتي بأنـه يرد بالقوة والعنف على عروض الولايات المتحدة المنزهة ، ويحرم البلدان المتخلفة اقتصادياً من مساعـدة

هي بأشد الحاجة اليها . ولمح القادة الروس الفخ ولم يترددوا في تحمل مسؤولياتهم. ولقد كانت سياستهم عادلة من حيث المبدأ : فهم انما كانوا ، بضغطهم على حلفائهم ، ينقذون السلام وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، ويحافظون في الوقت نفسه على فرض بناء الاشتراكية في أوروبا الوسطى .

لكن بشرط ان يتم البناء الاشتراكي في مصلحة الأمم الصغيرة، وأن يؤخذ بعين الاعتبار موقفها وحاجاتها ومواردها، وبناها الاجتماعية ومقاوماتها الداخلية . ولقد كان من الضروري والممكن أن تجنب تجارب الاتحاد السوفياتي الرهيبة . والحال ان هذا على وجه التحديد ما لم يشأ القادة الروس أن يفهموه . صحيح انهم كانوا فخورين بتاريخهم المجيد المأساوي ، لكن هل كانوا يعتقدون فعلاً أن على الأمم الصغيرة أن تنسخ تجربتهم ؟ أما كانوا يرون الفروق التي تفقأ العيون ؟ إن السوفياتيين لم ينجحوا في بناء « الاشتراكية في بلد واحد » إلا بفضل ثروات روسيا الطبيعية العظيمة الغنى . ويقيناً ، إن أوروبا الوسطى لا تفتقر الى الموارد ، لكن هذه الموارد موزعة بين العديد من الأمم : كان البناء الاشتراكي يستلزم اتحاد جميع الديموقراطيات الشعبية ورسم خطة مشتركة للانتاج . وهذا ما عبر عنه ايمر ناجي عام ١٩٥٣ حين قال : « ينبغي أن نركز جهودنا على الصناعة الخفيفة والغذائية مع تخفيفنا من وتيرة نمو الصناعة الثقيلة » . ولم يكن يقصد بهذا الكلام ، كما قيل ، أن يفضح أولوية الصناعة الثقيلة ، بل أن يقول إن الصناعة الثقيلة لا يمكن

أن تقوم إلا في مجموعـة عضوية متحدة تمكنها مواردها الكثيرة المتضافرة من انتهاج سياسة الكفاية الذاتية . وقـد كان أحد معاونيه أكثر صراحة حين قال : « لقد أخطأنا في تفسير سياسة التصنيع الاشتراكية » . إن تطوير الصناعات الخفيفـة ، كما حاولته حكومة ناجي بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥ ، لم يكن يعني التخلي عن المبدأ « الماركسي – اللينيني » : بل يعني التـأكيد على عدم إمكانية تحقيق « الاشتراكية في بلد واحـد » في المجر وحدها . لكن ستالين والستالينيين لم يفهموا هذه الحقيقة ، بل كانوا مقتنعين بأن على كل ديموقراطيـة شعبية أن تندفـع في تصنيعها الى الحـد الأقصى لتقيم استقلالها على كفاية ذاتيـة اقتصاديـة . فكيف أمكنهم أن يتخيلوا ان عرق ودم الشغيلة سيستطيع أن يخصب الارض وأن يوجد الفحم أو الحديـد على وجه التحديد في الاماكن التي لا وجود لها فيها ؟ أهي العنايـة الإلهية ؟

ولقد اطلقت بعض دول اوروبا الوسطى ، بدءاً من عـام ١٩٤٥ ، فكرة اتحاد فيدرالي اقتصادي فيما بينها . ومن الواضح ان ستالين لم ينظر الى هذه الفكرة بعين الاستحسان. وعلى فرض ان الكرملين كان سيقبل بهذا النوع من الاتحاد ، إلا ان مشروع مارشال قضى حتى على هذا الأمل . وانتصر جانب الريبة . لا يكفي سلخ تلك الدول من تحت سيطرة الغرب ، بـل ينبغي عزلها وتقسيمها للسيادة عليها . لقد كانت « الاشتراكية في بـلد واحد » المذهب والمشروع الضخم لأمة معزولة عـن العالم .

ولسلخ الديموقراطيات الشعبية من العالم المحيط بها ، فلا بـد ان تلقن مبدأ « الاشتراكية في بلد واحد» . ان الستالينية لا تكف عن استغلال عـدم تجانس الدول التابعة السياسي . وكما تخفي عنها ان اقتصادياتها تستطيع ان تكون ، في بعض القطاعات ، متكاملة ، ترغمها على بناء اقتصاديات متماثلة . ان كل ديموقراطية شعبية ستندفع بفضل معونة الاتحاد السوفياتي — من خـبراء واسواق ومساعدة مادية في الحالات العاجـلة — في التصنيع المبالغ فيه وفي تحويل القطاع الزراعي الى مزارع جماعية بسرعة زائدة . ولقد كان لهذا الهيجان مفعول آخر : إن السكان ، إذ سيستغرقون في انجـاز العمل البناء الضخم ، سينسون مارشال وأعماله . ان بناء الاشتراكية على الطريقة الروسية هـو الرد الفخور على عروض الاجنبي : نحن لسنا بحاجة الى أحد ، اننـا سنعمل من أجل كفاية انفسنا . إن الاتحاد السوفياتي هو الراعي الصالح ، وهو يقود إخوته الصغار نحو الوفرة والازدهار : إن عاطفته الحبية ستنسيهم ضعف معونته المادية . ثم انه كان لا بد لتقنيع الدكتاتورية السوفياتيةمن اثارة الروح القومية الشوفينية . وهكذا راحـوا يتغنون بالشعب الذي يحقق استقلاله بعرق جبينه ، ثم ارادوا ان يقدموا له الرموز المحسوسة على انتصاراته : فبنى راكوزي السكرتير الأول للحزب الشيوعي المجري قطار مـترو في بودابست بخـلاف رأي الخبراء ، كما شيد مـدينة ستالينغاروس فكانت مدينة لا يعمل أحـد فيها ، وحـاول الستالينيون البولونيون ان يجهزوا البـلاد بصناعة سيارات .

ويجمل القول انهم ارادوا ان يبعثوا نزعة قومية جـــديـــدة على أساس « الانجازات » الجبارة . وهكذا راح كل بلد ، بعد ان فصل عن جيرانه، ينسخ تجربة المجتمع السوفياتي ، مخفياً عبوديته وبؤسه ببناء واجهة ضخمة خداعة .

كانت الحكومات تستطيـع ان تتبادل البرقيات والزيارات والبعثات ، لكن العـــلاقات الحقيقية بـــين براغ ووارسو ، بين بلغراد وبودابست ، كانت تمر بالضرورة من موسكو . ونحن نجد هنا مبدأ التسلسل الستاليني : فالمرؤوسون لا يتصلون مـع بعضهم البعض إلا بواسطة الرئيس . وكان هذا هو خطأ ستالين الأساسي : فبدلاً من ان يربط الاتحاد السوفياتي حلفاءه اليـــه بتضامن واقعي وإيجابي ، فضل ان يخلق مسوخاً لا تستطيـع ان تبقى على قيد الحياة بدونه .

وفي الوقت نفسه الذي كانت تثار فيه الروح القومية ، كان الارتياب الستاليني يعمل على إذلالها . لقـــد كانت هناك هوة بعيدة الغور بين هـــذه الثورات « المفبركة » مسبقاً وبين ثورة تشرين الأول. لقد كانت هذه الأخيرة ثورة لها استقلالها الذاتي. ومهما كانت تناقضاتها والمجتمع المتسلسل الذي ولدتـه فيما بعد ، فقد كانت صادرة من الأسفل ، تحملها الجماهير ، على الأقـــل في البدء . امـــا بالنسبة للديموقراطيات الشعبية ، فقـــد كانت الاشتراكية ، على العكس ، بضاعـة مستوردة ، وكانت الثورة قد انجزت من فوق ، وكان زعماؤها قـد فرضهم الجيش الاحمر واكثرهم عائداً من موسكو . وكانت الحكومـــة الوحيدة التي

تتمتع بالثقة الشعبية هي حكومة يوغوسلافيا ، وقد استمد تيتو التأييد من الجماهير لمعارضة مطالب الاتحـــاد السوفياتي . ونحن نعرف النتيجة : لقد طلب الارتياب الستاليني تصفية «الشيوعيين القوميين» في كل مكان. والحال ان هؤلاء الشيوعيين هم الوحيدون الذين ناضلوا في المقاومة ضد النازي، والوحيدون الذين احتفظوا ببعض التاثير الشخصي على العمال . اما الرجال المتبقون ، فقـد كانوا مدينين بسلطتهم ، رغماً عن كل مـا يمكن ان يكنوه من اخلاص للاشتراكيـة ، الى دعم الأجنبي . ولقـد كنت ذكرت كيف ان البيروقراطية السوفياتية انفصلت عن الجماهير . لكني بينت ايضاً ان هـذا الانفصال كان نتيجة لتناقضات محتومـة وأخطار بالغة . امـا في الديموقراطيات الشعبية ، فإن طبـع الأحزاب الشيوعية بالطابع الستاليني قد حقق هـذه القطيعة مسبقاً وأفقد السياسة الجديدة حظوتها لدى الجماهير. ولقد رأت هذه الحكومات التي ولدتها الحرب الباردة أن من المفيد ان تثير الروح القومية بالكلمات ، مع ان وجودها هي نفسها كان إذلالاً لهذه الروح . ولم تفهم انها خلقت بذلك سلاحاً سينقلب ضدهـا إن عاجلاً او آجلاً .

وسقط كل شيء في التجريد . لكن من الخطأ ان نشمل بهذا الحكم الخطط التي رسمها الاتحاد السوفياتي ، على أيدي خـبراء سوفياتيين ، هم اعرف النـاس بمتطلبـات اقتصادهم القومي وموارده . امـا في الديموقراطيات الشعبية ، فإن الخطط ، التي رسمها خبراء روس، لم تكن تاخذ بعين الحساب شروط الانتاج

الواقعية . ولم يكن اي انسان يستطيع ان يطرحها على بساط البحث والنقاش ، ما إن ينتهي وضعها . وهكذا فرضت هذه الخطط على البلاد اقتصاديات مصطنعة لا يمكن للاقتصاد الواقعي ان يتحملها. وكانت السياسة الاقتصادية المعبرة عن هذا كله هي سياسة التصنيع الثقيل .

ونتائج ذلك معروفة لدى الجميع : فقد أدى عداء الفلاحين الى فشل التعاونيات في كل مكان . ولم تكن الحكومات واثقة بما فيه الكفاية من قواتها كي تستعمل القوة . ذلك ان الحضور الملحوظ للأجنبي المحتل كان يسمم كل شيء : فهل كان الجنود الجريون سيطلقون النار على الفلاحين من أبناء جلدتهم ليرغموهم على تنفيذ أوامر الأجنبي ؟ وهل يمكن اللجوء الى القوات الروسية دون أن يتفاقم الموقف أكثر فأكثر ؟ في الحقيقة ، لقد كانت سلطة الدكتاتوريين الواقعية أقل صلابة مما كانت تبدو عليه في البداية : إنهم يستطيعون أن يشنقوا البيروقراطيين ، لكنهم ما كانوا يتوصلون الى دفع الفلاحين لتأييد النظام بل ولا حتى الى إبقاء العمال في أماكن عملهم . وصحيح ان الفلاحين لم يعارضوا بالقوة تأسيس التعاونيات ، لكن مقاومتهم السلبية أدت الى هدم النظام . وكانت الأهداف المحددة من قبل الخطة لا تدرك البتة . وكان في كل ديموقراطية شعبية مجتمعان : المجتمع – السراب ، والمجتمع الواقعي . وكان المجتمع – السراب هو الاتحاد السوفياتي في صورة مصغرة : بيروقراطية سكرى بالإحصاءات تقود الجماهير الشغيلة بيد فولاذية نحو الاشتراكية .

أمـا المجتمع الواقعي فكان عبـــارة عن اقتصاد وبيروقراطية يدوران في الفراغ وجمــاهير تشكو من خليط من الإكـــراه والفوضى . وكان البؤس شاملاً حتى ان الكثيرين كانوا يقـومون بالعمل « الأسود » ، أي انهم يعملون ساعات إضافية بعد انتهاء عملهم الرسمي . وينتج عن هذا ان الاقتصاد الواقعي (القـائم جزئياً على العمل السري) يختلف في طبيعته عن اقتصاد الدولة الرسمي .

لقد قيل ان الاتحاد السوفياتي استعمر البلدان الدائرة في فلكه : وهذا غير صحيح . فالاستعمار نظـام اقتصادي محدد ، له صفات غير متوفرة هنـا : هل رأى احدنا مستعمرين يرغمون من يستعمرونهم على تصنيع بلادهم ؟ إن الدولة الاستعمارية تصدر مواد مصنوعة لتستورد مواد خاماً أو مواد غذائية: والحال ان طبيعة المبادلات بين الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية مختلفة: فالاتحاد السوفياتي قد يشتري مواد مستخرجة من المناجم ويدفع مقابلها حبوباً (فحم بولوني مقابل قمح سوفياتي). بل قد يحدث له أن يصدر مواد خاماً مقابل استيراده، أي ان يلعب دور البلد المتخلف اقتصادياً. قد يقول البعض : صحيح هذا، إلا أنه لا يمنع أن يكون هناك استغلال. وهذا غير صحيح أيضاً. او على الأقل، ليس هو الاساسي. يقيناً، لقد سعى القادة السوفياتيون دوماً الى عقد اتفاقيات تكون في مصلحتهم. ووضعوا يدهم على اليورانيوم المجري . واشتروا الفحم البولوني بثمن أقل من سعره العـالمي . لكن ما يأخذه الكثير من الشيوعيين على الروس ، ليس كونهم

قد اشتروه بأدنى من سعره العالمي ، بل كونهم قد جعلوا السعر العالمي أساساً لحساباتهم ، وهذا ما يضر بالأمة المتخلفة اقتصادياً. ومجمـــل القول انهم ياخذون على هؤلاء الاشتراكيين تصرفهم كرأسماليين . وعلى كل الاحوال ، ليس هـذا هو السبب الذي أدى الى دمار اقتصاديات الديموقراطيات الشعبية . وينبغي ألا ننسى ان المعونة المادية السوفياتية كانت تعوض أحياناً عن الحيف الذي يلحق بتلك الديموقراطيات. كلا : إن الاتحاد السوفياتي لم يستعمر ولم يستغل الديموقراطيات الشعبية. والصحيح انه اضطهدها طوال ثمانية أعوام . كان بمقدوره أن يكسب صداقتها ، لكنه فضل ، عن عمد وبدافع التشاؤم ، الإكراه. إن ذلك البلد الكبير المتوحد لم يشأ ولم يعرف كيف يحطم قوقعته القائمة على الروتين والارتياب ، كيما يتلاءم مـــع الوضع الجديـد وينتزعم أوروبا الوسطى . والارتياب ، كما قلت ، له نتائجه : فقد بات هؤلاء الحلفاء غير موثوقين. وما من وسيلة للتعامل معهم إلا القوة .

لكن الجراح ظلت خفية ايام ستالين . ولا يستطيـع احد ان يشك في ان احداث بولونيا والمجر هي المفعول المباشر لما يسمى باللاستالينية . إلا ان اللاستالينية هذه ، مع كل الانقلاب الكبير الذي تمخضت عنه ، لم تأتِ تحت ضغط الجماهـير . ذلك ان النظام الستاليني لم يكف ، منذ ولادته ، عن ان يهـــدم نفسه بمقدار ما كان يبني مجتمعاً جديداً مختلفاً تمام الاختلاف عن المجتمع الذي ولده . وكانت الستالينية ، في أواخر حكم ستالين ، قـد أوجدت جميع الوسائل الكفيلة بتصفيتها . لقـــد اضحت أثراً

بالياً يتناقض عميق التناقض مع البنية الواقعية للمجتمع الجديد . كان الاتحاد السوفياتي قد ملك قنابل ذرية ، ولم يعد بالامكان مهاجمته دون تعريض الجنس البشري للفناء. وفي الوقت نفسه — ورغماً عن ارتياب ستالين الكبير — ولدت قوة شيوعية كبيرة، صنعت ثورتها بنفسها ، وجمعت منذ البداية بين متطلبات البناء الاشتراكي ومتطلبات المصلحة القومية: لقد انقذت صين ماوتسي تونغ الاتحاد السوفياتي من التطويق. لكنها كانت ترغمه في الوقت نفسه على إقامة علاقات اشتراكية حقيقية لأول مرة في تاريخه مع بلد واحد على الأقل . لقد فهم القادة السوفياتيون انهم عن طريق الصين وحدها يستطيعون ان يمدوا تأثيرهم الى العالم الآسيوي . لكن حظوة الصين الشعبية كانت مرتبطة باستقلالها وسيادتها . وهكذا اضطر الاتحاد السوفياتي ، منذ عام ١٩٤٩ ، على أن يؤسس علاقاته ، مع أمة أجنبية ، على الثقة والكرم ، بخلاف علاقاته مع الديموقراطيات الشعبية .

بيد ان بنية المجتمع السوفياتي لم تكف عن التغير . ولم يعد الحصار الاقتصادي باعثاً على الخوف، ذلك لأن الاتحاد السوفياتي أصبح ثاني دولة صناعية في العالم . كانت الاولوية المعطاة للصناعة الثقيلة والتسلح قد عرقلت ارتفاع مستوى الحياة لكنها لم توقفه. وكان مستوى ثقافة العمال قد ارتفع ايضاً بشكل محسوس، وبات بمقدورهم ان يساهموا في التخطيط . لكنهم كانوا يتحملون بصعوبة استبداد نواب ستالين الصغار في المصانع والورشات . وكذلك فإن الجيل الريفي الجديد لم يعرف مجازر وتهجيرات ما

قبل الحرب ، ويشعر بالمقابل بفوائد الزراعة التكنيكية ، وهذا ما كان يقربه شيئاً فشيئاً من النظام .

لكن الدكتاتورية ، في القمة ، كانت مـــا تزال تشد قبضتها أكثر فأكثر . وكان الإرهـــاب يتفاقم ويدور اكثر فأكثر في الفراغ . ومن أعلى السلم الى أسفله ، كانت هناك بيروقراطية غير كفوءة تعرقل عمل الاخصائيين الذين ولدهم النظام الجديد . لقد كانت لهذه البيروقراطية ساعتها البطولية : لقـــد ثقفت نفسها ووجهت التصنيـع ، ايام لم يكن هناك وجود لأي كادر . وكان ستالين النموذج الأول لأولئك الشغيلة الكبـــار : كان يقرأ كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويقرر كل شيء ، ويجد الوقت ليشاهد جميع الأفلام ، ويحكم على جميع الروايات ، ويستمع الى جميـــع المؤلفات الموسيقية . لكن بقدر ما كان هؤلاء البيروقراطيون يأخذون محل الخبراء والاخصائيين ، كانوا يحفرون قبرهم بيدهم : ذلك ان التصنيع العالي ، الذي خلق بعنايتهم ، ينتج اخصائيين متزايدين دوماً ، ووظيفتهم هي على وجه التحديد إبعاد أولئك البيروقراطيين . وهذا التناقض بين الأجهزة القديمة والحديثة تكشف عنه الكثير من الروايات التي ظهرت في الآونة الأخيرة : فهـذه الروايات ، ومن بينها رواية اهرنبورغ المشهورة « ذوبان الجليد » ، تشدد اللهجة على التعارض القائم بين الاداري وبين العالم أو الاخصائي . ذلك ان الاداري وصولي لا يثق بالعمال ولا يعرف شيئاً كبيراً خارج مبادئه السياسية ، في حين ان المهندس ، على العكس ، رجل نافع وحقيقي لأنه على علاقة بالأشياء المادية

والآلات ، لهذا فهو صديق العمال .

لم يعد بمقدور النظام الستاليني اذن إلا ان يعرقل الإنتاج . ولقد بات نظاماً طفيلياً لا سبب آخر له سوى وجود ستالين . وما دام هذا الأخير على قيد الحياة ، متربعاً فوق الجميع كرمز لدكتاتورية ضرورية ، فإن المجتمع السوفياتي الجديد لا يملك الوسائل لتعرف نفسه . كان ستالين هو الذي يغذي النظام ويدعمه، لكنه كان ايضاً أول ضحاياه : لقد رفعه الارتياب العام الى الحكم ، وهو ما زال تجسيد هذا الارتياب مع انه لم يعد له من سبب للوجود . وبقدر ما كان يشعر بالطلاق بين نظامه الخاص وبين المجتمع الذي خلقه ، كان لا يستطيع ان يستمر في الحكم إلا بزيادة الارتياب . لقد كان ستالين الرجل الأول أيام « الانكماش » السوفياتي ، ولهذا فإنه لا يستطيع ان يستمر في المرحلة الجديدة التي دخلها المجتمع السوفياتي : مرحلة التوسع .

ونحن مرغمون على الاعتراف بأن العامل الأول في اللاستالينية هو بكل بساطة موت ستالين: كان لا بد أن ينزاح ذلك الحجاب الجنائزي كيما يكتشف المجتمع السوفياتي نفسه على حقيقته . وهكذا اختفى مفهوم معين بال ٍ عن الاندماج الاجتماعي في الوقت نفسه الذي اختفى فيه الرجل الوحيد الذي كان يستطيع فرضه . وهذا على وجه التحديد ما يجعل عودة الدكتاتورية مستحيلة : ذلك أن المجتمع لن يتعرف نفسه فيها . لقد مضت أيام الأسطورة الرومانتيكية عن الوحدة المتجسدة في شخص واحد وحيد . لهذا فإن خلفاء ستالين لن يستطيعوا أن يقلدوه ،

حتى ولو كانوا راغبين في ذلك : لأنهم مـا عادوا مقدسين مثله ، لأن المجتمع الإيجـابي الجديد قد صفى الأصنام والعبادات . لقد رأينا الصحافة البورجوازية تتحدث عن اقتتال القادة السوفياتيين بهدف خلافة ستالين . وهذا غير معقول : ذلك ان ستالين لم يترك خلافة بعده . وكل ما تركه هو عـالم صنعه وينكره . وكانت المهمة الاولى التي طرحت نفسها على القـادة السوفياتيين هي كيف يعيدون الى الحزب ثقـة الجماهير ؟ لكن هل ستعطي الجماهير الحزب ثقتها ، إن لم يمنحها هـو أولاً ثقته ؟ أي إن لم تمنح القاعدة بعض الإشراف على الجهاز ؟ وهكذا كان لا بد من إعادة توزيع التوظيفات بحيث تعي الجماهير انها تشتغل من أجل نفسها باشتغالها من أجل الأمة . وبتعبير آخر ، إن السياسة الوحيدة الممكنة ينبغي أن تكون إيجابية ، قائمـة على التفاؤل والثقة . لقد ارتاب الاتحاد السوفياتي الستاليني بالآخرين لأنه كان يرتاب في نفسه . أما روسيا الجديدة فهي تغير سياستها لأنهـا اكتشفت أخيراً انها تستطيع أن تثق بنفسها . إنها قوية بما فيه الكفاية الآن ، في جميع الميـادين ، كما تفتح الأبواب على سعة للغرب . إن الأسوأ ليس أكيداً دوماً بالنسبة لبلد فتي واثق من نفسه : فالسياسة الجديدة لن تنجح في جـو من الانفراج الدولي فحسب ، بل هي ستساهم في خلق هـذا الجو أيضاً . وليست حجة أن نقول أن اللاستالينيين اليوم هم ستالينيو الأمس . ذلك أن اللاستالينية هي التي تجعل اللاستالينيين لاستالينيين . والطبقة العاملة لا تستطيع ، مع نهاية الإرهاب ، أن تتهرب من رؤيـة

تناقضاتها : فقد كانت هذه التناقضات تخفى عنهـا باسم السلامة العامـــة ، لكن الخطر يبتعد ، وهي تتبين أن وضعها العملي يتعارض مع دورها النظري كطبقة دكتاتورية . إنها ، بدلاً من أن تسهم في بناء التخطيط ، تشعر بأنهـــا ترضخ له . وثقافتها – التي تفوق ثقافة أي بروليتاريا أخرى – تسمح لهـا بأن ترى بوضوح : إنها ستعبر بوضوح عن مشكلاتها ومطالبها . وعلى هذا فإن الحركة التي تنمو داخل المجتمع السوفياتي لا يمكن أن تكون إلا عودة الى مصادر الاشتراكية وينابيعها الأولى : إن تنمية الإنتاج تتطلب الآن الثقة بالجماهير . وعلى هذه الجمـــاهير ، التي تلقت الثقافة أكثر مما كسبتها ، أن تعود الى نشاطها الذاتي وان تتحرر من خـــلال المعركة الإصلاحية . إن اللاستالينية سياسة ظافرة ، عليها ، إن عـــاجلاً أو آجلاً ، أن تحرر جميع القوى الايجابية في المجتمع السوفياتي . إنهـــا ترفض التشاؤم الستاليني وطابعه الماركسي الزائف – ليس صحيحاً أن بناء الاشتراكية يزيد من حـــدة الصراع الطبقي – وتقيم مكانه مبادئهـــا الخاصة : ليس الأسوأ هو الأكيد دوماً ، وليس الإنسان بشرير . وينبغي تهيئة السلام عن طريق السلام . والحقيقة انه من غير المهم ألا يكون اللاستالينيون قد تحرروا تمام التحرر من الستالينية ، إنما الخطر هو أن تظل في الكوادر العليا والمتوسطة كمية محترمة من البيروقراطيين ، تتعارض مصالحها مـــع إزالة آثار الستالينية . والحقيقة ان « الستالينية المحدثة » غير قابلة للحيـــاة : فقـــد ولدت وهي مقطوعة الرأس . ومـــا يطلق عليه هذا الاسم ليس الا الجهود

البائس لفئة تحاول ان تدافع عن امتيازاتها وآرائهـا المتحجرة . وهذا لا يمكن أن يؤدي الا الى تصفيتها .

ومن المؤسف أن الغرب، في كل مرة يراهن فيها على الأسوأ ، يزيد ، في الشرق ، من نفوذ الذين راهنوا على الحرب . إن جميع من لديهم بصيرة ، مهما كان اتجـاههم السياسي ، قـد أعلنوا وكرروا بأن من الواجب مقابلة هـذه الانفتاحات الأولى من جـانب الاتحاد السوفياتي بانفتاحات مماثلة . لكن من المؤسف أن تكون الحرب الباردة قد غيرت بنية المجتمع في بلادنا ايضاً . ففي كل مكان رفعت منـاوأة الشيوعية المحافظين الى الحكم : والحال ان هؤلاء المحافظين هم الحلفـاء الطبيعيون للستالينية . ثم هناك صانعو الأسلحة : فلقد بعث شبح السلام في نفوسهم رعباً مميتاً . كل شيء إلا « هذا »:وهكذا أسرع ممثلوهم الى التصويت على إعادة تسليح المانيا . ذلك ان إعادة التسليح هذه ليس لهـا إلا فائدة واحـدة هي أن توقف تقدم اللاستالينية وأن تعيد توطيد الحرب الباردة .

لكن ما رجح كفة الستالينيين في البداية انما هو اضراب عمال برلـين . التمردي . لقد اكتشف المسؤولون السوفييت حقيقتين مريرتين في آن واحد معاً: اكتشفوا أولاً ان حكومات البلدان الحليفة قد كذبت عليهم ، وان الوضع في الديموقراطيات الشعبية مختلف الى ابعد حدود الاختلاف عن الصورة التيقدمتها عنه هـذه الحكومات ، واكتشفوا ثانياً ان اللاستالينية ليست حدثاً سوفياتياً خالصاً : بل لا بد ان تمتد لتشمل الديموقراطيات

الشعبية ، ونتائج هذا الامتداد ستكون أخطر وافدح كلما كان الاقتصاد اشد انهياراً . لقـــد كانت اللاستالينية في الاتحــاد السوفياتي منصبة على النصر : ذلك ان النظام مستقر ، والإنتاج في تقدم مطرد . اما في الديموقراطيات الشعبية فإن اللاستالينية منصبة على الهزيمة : فإذا ما تراخت قبضة الإكراه ، اكتشفت جرائم واخطاء فادحة وموارد مبذرة ، وحفنة من الستالينيين معزولة امام السكان المناوئين الذين يكرهون حكومتهم والسوفياتيين ، وربما الاشتراكية . فكما ان الستالينية لم تكن تصلح للتصدير ، كذلك شأن اللاستالينية . وهكذا وجد القادة السوفياتيون أنفسهم مرغمين على التضامن مـــع مخلوقات ستالـين في اوروبا الوسطى . غير ان السياسة الجديدة ستتطور مع ذلك من نفسها : إن حركة التوسع العامة سترغم السوفياتيين على تسويـة خلافهم مع تيتو . وكيف التوصل الى ذلك، إن لم يعلنوا ان الاشتراكية يمكن ان تتحقق بطرق مختلفة ، اي إن لم يشجعوا في جميـــع الديموقراطيات الشعبية اولئـــك « الشيوعيين القوميين » الذين سجن زعماؤهم وعذبوا واضطهدوا ؟ لقد سعى المدعون العامون، فيما مضى ، الى ان يحاكموا تيتو . واليوم يطالب تيتو، المنتصر، بإلغاء جميع الاحكام . إن التناقض العميق لهـذه السياسة يثب الى الانظار وثباً : ان المسؤولين السوفياتيين يدعمون ستاليني اوروبا الوسطى ، لكنهـــم يفقدونهم حظوتهم بتقربهم مـــن اليوغوسلافيين. لقد نصب السوفياتيون دكتاتوريي اوربا الوسطى بواسطة الجيش الاحمر ، وجعلوهم مشبوهين إذ قلدوهم السلطة ،

ومكروهين إذ ارغموهم على اللجوء الى الإرهاب. والآن يذلونهم بإرغامهم على الاعتراف بجرائمهم وعلى تقبيل قدمي تيتو . وما كان هذا كله ليكون خطيراً لو ان هؤلاء المجرمين شنقوا بعد اعترافاتهم . لكن من اين يؤتى بجهاز بديل عنهم ؟ لقد كان هذا الجهاز موجوداً : فقد كان هناك في السجون ، رجال كسرت اسنانهم وقلعت اظافرهم ، ما زالوا محتفظين بمودة الشعب . لقد كانت الحكومة السوفياتية تشك في امكانية ان يصبح هؤلاء الرجال الذين سجنهم ستالين حلفاء اوفياء . ولقد كانت هذه بلا ريب اكبر غلطة ارتكبتها: فقد منعها الارتياب الستاليني القديم من ان تفهم ان اولئك الشيوعيين المخلصين سيقدمون مصلحة الاشتراكية ومصلحة بلادهم على احقادهم الشخصية، وسيجددون على أسس مختلفة تحالفهم مع موسكو . فمن اين جاء هذا الارتياب ؟ ذلك ان اللاستالينيين لم يتخلوا عن موقف ستالين ازاء الديموقراطيات الشعبية : فكانوا لا يثقون بها ويعتبرونها اوكاراً للفاشية . ومجمل القول إن فشل الستالينية بالذات كان يدعوهم الى الاستمرار فيها .

ومما زاد الطين بلة تقرير خروتشيف السري . لقد وصل هذا التقرير الى آذان شعوب الديموقراطيات الشعبية بعد ثمانية أيام من إلقائه ، رغم الكتمان الشديد الذي احيط به . وبالتالي أصبح واجباً ان يكون للاستالينية ممثلوها في اوروبا الوسطى . وهذا ما لم يكن يتمناه المسؤولون السوفياتيون . لكن الضربة كانت رهيبة على كل الاحوال، فقد انقسمت الاحزاب الشيوعية

في الديموقراطيات الشعبية الى قسمين ، وادرك القادة وشركاؤهم أن عليهم إما أن يختفوا وإما ان يفرضوا انفسهم بالقوة . لكن القوة كانت قـــد بدأت تفلت منهم ، وبات المناضلون الشرفاء يرفضون دعمهم . وفي ايطاليـــا كان توغلياتي يفضح المسؤولية الجماعية للقادة السوفياتيين ، فهم قد دافعوا في الماضي عن سياسة ستالين او كانوا منفذين لها .

لقــد كانت اللاستالينية هي السبب الــكامن وراء احداث بولونيا ورومانيا والمجر . ولقد فضل القادة الروس ان يضربوا ، وان يقضوا على فرصة بنـاء الاشتراكية في المجر لمـــدة خمسين عاماً ، بهدف ان يشل هذا المثل الدموي من الرعب « الدول الدائرة في فلك موسكو » . وقد يقـــال انهم ارادوا بذلك ان ينقذوا الفرصة العـــالمية للاشتراكية . انا اعتقد ذلك . لكن الاشتراكية الحقيقية لا تنفصل عن العمل الواقعي للبشر الواقعين الذين يناضلون معاً ضد أرباب العمل ، وضد المباحث ، بل احياناً ضد الدولة وجنودها . انهم يصنعون التـاريخ في الوقت نفسه الذي يصنعهم فيه . وعملهم انمـــا يقوم على حاجاتهم ، وحاجاتهم حقيقية مثلهم . اما الاشتراكية التي اطلق الجنود السوفياتيون باسمها النار على الجماهير في المجر ، فـــإنني لا اعرفها ، بـل لا استطيع ان اتصورها : فهي لا تصنع بأيدي البشر ولا من اجلهم . إن القادة السوفياتيين لم يهدفوا بعملهم هذا الى انقاذ البشر والمكتسبات العمالية والمستقبل العيني لسياسة بنـاء الاشتراكية ، بل كانوا يهدفون ، من

خلال منظور الحرب العالمية ، الى تقوية الأمه السوفياتية وجيوشها . وصناعتها الحربية . ومما لا ريب فيـه ان الاتحاد السوفياتي ينبغي ان يعيش ، ينبغي ذلك من أجل قضية الاشتراكية : إن جميع يساريي العـالم يعترفون بهذه الحقيقة . لكن ينبغي ايضاً ان يظـل الاتحاد السوفياتي اشتراكياً . اننا من أولئك الذين يقولون ان الغـاية تبرر الوسيلة ، لكن بشرط ان نضيف : انها الوسائل التي تحدد الغـاية . ان الاتحاد السوفياتي ليس امبريالياً . ان الاتحاد السوفياتي بلد مسالم ، وبـلد اشتراكي : هـذا صحيح . لكن حين يطلق قـادته ، بهدف انقـاذ الاشتراكية ، جيش الشعب على بـلد حليف ، حين يأمرون جنودهم ، اولئك الكائنات المجردة ، بإطلاق النار على عمال ما عاد بمقدورهم ان يتحملوا بؤسهم ، فإنهم يحولون الاشتراكية الى وهم وسراب ، ويحولون الاتحاد السوفياتي ، رغماً عنهم ورغماً عنه ، إلى بـلد مفترس .

كل شيء واضح : لقد اراد اللاستالينيون ان يتابعوا سياسة ستالين في أوروبا الوسطى ، في الوقت نفسه الذي كانت فيـه مواقفهم في الاتحاد السوفياتي وتصريحاتهم تحول دون مثل هـذه السياسة . وبالطبع ان المنظور الوحيد لمثل هذه السياسة هـو الحرب العالمية. لكن لا الاميركان ولا الروس يريدون الساخنة. ثم ان الحرب الباردة اصبحت بالية . ان الستالينية المحدثة تسير في عكس تيـار التاريخ . وهي تجد تبريرهـا الوحيد في

الديموقراطيات الشعبية التي دمرها ستالين . اما في مـا سواها ، فإن كل شيء يناقضها : المجتمع الروسي الجديـــد ، وجود صين شيوعية،موقف الغرب بالذات . إن علينا ان ندين هذه السياسة لأن الوقائع تدينها ، وأن نعارضها بالسياسة الوحيدة المتلائمة مع الواقع اليوم ، السياسة التي تجعل من الانسان مقياس كل شيء ، والتي تحارب جميع الاستلابات حتى عندما تتزيا بالزي «الاشتراكي» ، السياسة التي ترفض ان تختار الحرب القادمة وتريد ان تهيىء للسلم بأفعال مسالمة ، السياسة التي ستعيد أخيراً السيادة للشعب سواء أفي الاتحاد السوفياتي ام في الديموقراطيات الشعبية . ان سياسة الثقة والانفتاح هذه هي السياسة التي كان يمكننا ان ننتظرها بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. ان الظروف تفرضها: انها تدعى « دمرقطة » و «لاستالينية» . وعلى الاتحاد السوفياتي احد أمرين : إما ان يصفي بيروقراطيته الستالينية ويعيد النظر من نفسه في جميع علاقاته مع الديموقراطيات الشعبية ، وإما ان يضطر الى استخدام القوة لقمع انتفاضات شعوب هذه الدول ، وهذا ما يهدد بأن يقوده الى خوض غمار حرب عالمية لا احـــد يريدها ، ويزعم هو نفسه انه يريد منعها .

انـدِمَاج الوُجُوديّـة

لقد تصلبت الماركسية والعقيدة الاشتراكية وتحجرتا نتيجة للسياسة الستالينية، نتيجة لانفصال النظرية عن التطبيق. وهذا التصلب هو الذي أتاح للوجودية ، ان تظهر وتعيش على هامش الفلسفة الماركسية، لتسد النقص الذي لم تسده الماركسية. لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ان الوجودية تنزل نفسها منزلة الفلسفة المستقلة . انها تعلم ان دورها مؤقت وهامشي. ولا بد ان يأتي اليوم الذي تجد فيه نفسها وقد فقدت كل مبرر للوجود . وسيوجد هذا اليوم عندما تدب الحياة في الماركسية من جديد وتعود فعلاً ، كما كانت وكما يجب ان تكون ، فلسفة العصر ، وتوحيداً حياً كلياً لجميع معارف العصر وعلومه .

لكن الى حين ياتي هذا اليوم ، فإن على العقيدة الوجوديةان تؤدي دورها كاملاً. فما هو دور الوجودية التي تعيش على هامش الماركسية ؟ .

يقول سارتر في « مسألة منهج » : « اننا نقبل بدون تحفظ بالآراء التي عرضها انجلز في رسالته الى ماركس : « ان البشر يصنعون تاريخهم بأنفسهم لكن في وسط معطى يشرطهم » . لكن سارتر يضيف ان هذا النص ليس واضحاً كل الوضوح وهو يقبل العديد من التأويلات . وبالفعل كيف ينبغي ان نفهم عبارة ان الانسان يصنع التاريخ اذا كان التاريخ بالاصل هو الذي يصنعه ؟ ان الماركسية المثالية تبدو وكأنها اختارت أسهل التأويلات : فهي ترى ان الانسان ، المشروط كلياً بالظروف الاقتصادية، هو نتاج سالب ، مجموعة من الانعكاسات المشروطة . لكن هذا الموضوع العاطل يساهم ، عندما يدخل الى العالم الاجتماعي ، بين سائر العطالات المماثلة له ، في الإسراع بسير العالم او في عرقلته : انه يغير المجتمع، تماماً كما ان القنبلة تستطيع ان تهدم بناية من البنايات دون ان تكف عن الخضوع لمبدأ العطالة . والحال ان ماركس نفسه يهاجم هذا المفهوم المادي المتحجر عن الانسان ، ولقد قال مرة : « إن المذهب المادي الذي يعتبر البشر نتاجاً للظروف والتربية ... لا يأخذ بعين الاعتبار حقيقة ان البشر يعدلون الظروف بأنفسهم وأن المربي لا بد ان يربى اولاً » .

واذا أردنا ان نحفظ للفكر الماركسي كل تعقيده وغناه، فلا بد ان نقول ان الانسان يكون ، في مرحلة الاستغلال ، نتاج عمله الخاص وعاملاً تاريخياً لا يمكن بأي حال من الأحوال ان يعتبر نتاجاً . وهذا التناقض ليس جامداً ، بل ينبغي علينا ان

نلتقطه أثناء حركة التطبيق والعمل بالذات، وعندئذ فقط يتوضح معنى عبـــارة انجلز : ان البشر يصنعون التاريـــخ على أساس الشروط السابقة ، لكنهم هم الذين يصنعونه لا الشروط السابقة.

ويقيناً ان البشر لا يقيسون المـــدى الواقعي والفعلي لمـــا يصنعونه ، أو أن هذا المدى على الأقل يفلت منهم مـــا دامت البروليتاريا ، التي هي ذات التاريخ الفاعلة ، لم تحقق بعد في حركة واحدة وحدتها ووعيها لدورها التاريخي . لكن اذا كان التاريخ يفلت مني فليس هذا راجعاً الى انني لا اصنعه : بل يتأتى من ان الآخر يصنعه ايضاً . ولم تكن المـاركسية في القرن التاسع عشر إلا محاولة جبارة لا لصنع التاريخ فحسب ، بل ايضاً للسيطرة عليه نظرياً وعملياً ، عن طريق توحيد الطبقة العاملة وعـــن طريق تسليط الضوء على عمل هذه البروليتاريا من خلال معرفة التطور الرأسمالي والواقع الموضوعي للشغيلة . وعندما يتم هـذا المشروع، يكون قد اصبح اخيراً للتاريـخ معنى بالنسبة للانسان. لكن توحيد البروليتاريا هذا لم يتم الى اليوم مع الأسف . فهناك بروليتاريات لا بروليتاريا واحدة . واذا كان واجباً علينا ألا نغفل اهمية التضامن بين هذه البروليتاريات ، فإن علينا ايضاً الا نقلل من اهمية انفصالها . ومـــا دامت البروليتاريات متعددة ومنفصلة ، فلا مفر من ان يكون هناك تعدد في معاني التاريخ . لكن هذا التعدد ينبغي ان يأخذ طريقه الى التوحيد الشامل في المستقبل . وهذا التوحيد ، انمـا على عاتق الوجودية تقع مهمة الإسراع به ما امكن . ان مهمة الوجودية التاريخية هي ان

تقرب اللحظة التي لن يكون فيها للتاريخ الا معنى واحد .

ان التاريخ يصنع اذن على يد الانسان ، لكنه يصنع على غير الصورة التي يعتقد هذا الانسان انه يصنعه بها . وهذا على وجه التحديد ما يسميه الوجوديون بالاستلاب . وهم يعتقدون ان هذا الاستلاب يمكن ان يغير نتائج العمل لا واقعه العميق . انهم يرفضون ان يخلطوا الانسان المستلب مع الشيء ، والاستلاب مع القوانين الفيزيائية التي تتحكم في الشروط الخارجية . انهم يؤكدون نوعية الفعل الانساني . انهم يرون ان الانسان يتميز قبل كل شيء بقدرته على تجاوز موقف من المواقف . وهذه القدرة على التجاوز هي ما يسمونه بالمشروع . والحال ان هذا التجاوز لا يمكن فهمه إلا على انه علاقة الوجود بإمكاناته . فماهية الانسان هي ما يستطيعه . ولا شك ان الشروط المادية هي التي تحدد دائرة امكانات الانسان . والانسان انما يساهم في التاريخ عن طريق تجاوزه الواقع الى حقل الامكانات وعن طريق تحقيقه امكان من الامكانات . والامكان مرتبط دوماً بالمستقبل باعتبار انه نقص ، اي لم يتحقق بعد . واذا اردنا ان نفهم تأثير الشروط الخارجية على حقل الامكانات ، يمكننا ان نضرب المثال التالي : ان المجتمع الذي يتصنع يتطلب عدداً متزايداً دوماً من الأطباء . وهذه الحاجة الى الاطباء تشكل بالنسبة للبعض مستقبلاً حقيقياً وعينياً وممكناً . لكن هذا المستقبل يحدد ايضاً الفرد في واقعه الراهن، فالشروط التي يجب ان تتوافر في طلاب الطب ، في مجتمع بورجوازي ، تكشف في

آن واحد معاً عن مجتمع من سيارس هذه المهنة وعـــن مركزه الاجتماعي . ولما كانت دراسة الطب ما تزال تقتضي ان يكون الأهل ميسوري الحال ، ولما كانت منح الدراسة المجانية غـــير منتشرة انتشاراً كافياً ، فــإن طالب الطب ينتمي حتماً الى الطبقات المتوسطة ، وهو بالمقابل يعي طبقته من خلال المستقبل الذي تفتحه امامه ، اي من خـــلال المهنة المختارة . اما من لا تتوافر فيهالشروط المطلوبة، فإن الطب يصبح بالنسبة له«نقصه» و « لا إنسانيته » . وربما كان علينا من وجهة النظر هذه ان نعالج مشكلة الفقر النسبي : إن كل انسان يتحدد سلبياً بمجموع الامكانات غير الممكنة بالنسبة له ، اي يتحدد بمستقبل مسدود إن قليلاً وإن كثيراً .

وإنما ههنا يكمن خطأ الماديين الميكانيكيين أو علماء الاجتماع الاميركان . فهم يتصورون أن البشر خـــاضعون لتحديدات ولتعيينات مسبقة خضوع المعلول للعلة . لكن كل شيء يتغـير اذا اعتبرنا ان المجتمع يتمثل بالنسبة الى كل فرد كمنظور للمستقبل وان هـــذا المستقبل يتغلغل في قلب كل انسان كمحرك حقيقي لسلوكه . والماركسيون المعاصرون لا يستطيعون ان يجدوا اي عذر لأنفسهم حين يستسلمون امام المادية الميكانيكية وينخدعون بهـــا ، مـــع انهم يعرفون ويؤيدون التخطيطات الاشتراكية الجبارة : ان المستقبل بالنسبة الى الصيني اكثر واقعيـــة من الحاضر . وما لم ندرس بنى المستقبل في مجتمع محدد ، فإننـــا نغامر بألا نفهم شيئاً في المضمار الاجتماعي . ومجمل القول إن

الوجوديين ينطلقون من المستقبل في حين ان الحتميين ينطلقون من الماضي .

ان العمل الثوري هو انتقال من الموضوعية الى الموضوعية عن طريق التحويل الداخلي . والمشروع هو تجاوز ذاتي للموضوعية نحو موضوعية ثانية ، تجاوز متوتر بين شروط البيئة الموضوعية والبنى الموضوعية لحقل الامكانيات . وهو يمثل بالتالي في حد ذاته الوحدة الحية للذاتية والموضوعية . ان الذاتي جزء من التطور الموضوعي والشروط المادية التي تتحكم في العلاقات الانسانية ينبغي لها ، اذا ما اردناها ان تكون شروطاً واقعية للعمل ، ان تعاش من خلال خصوصية الأوضاع الخاصة : ان انخفاض القوة الشرائية على سبيل المثال لا يمكن أن يدفع البروليتاريا الى المطالبة بتحسين شروط حياتها ، إذا لم يشعر العمال بهذا الانخفاض في جسدهم ودمهم تحت شكل حاجة او خوف مبني على تجارب قاسية . والحال ان مجرد الإحساس او الشعور الذاتي بالواقع الموضوعي هو في حد ذاته تجاوز نحو إمكانية تغيير موضوعي . وعلى هذا فان الذاتي يحتوي في نفسه على الموضوعي الذي ينفيه والذي يتجاوزه نحو موضوعية جديدة . وهذه الموضوعية الجديدة تحول بدورها داخلية المشروع الى خارجية وذلك باعتباره ذاتية قد انقلبت الى موضوعية . والمشروع وحده ، باعتباره توسطاً ذاتياً بين لحظتين من الموضوعية ، يستطيع ان يفسر التاريخ ، أي الإبداع الإنساني . وما الديالكتيك إلا حصيلة تواجه المشروعات . وصفات

المشروع الإنساني تسمح وحدها بفهم ان هذه الحصيلة هي واقع جديد له دلالته الخاصة به ، بدلاً من ان تظل مجرد معدل وسطي .

واستناداً الى هذه الاعتبارات النظرية ، يحاول سارتر في « مسألة منهج » ان يقدم تلخيصاً عن الوجودية ، وجودبته ، وعن طبيعة فهمها للانسان ولدوره في صنع التاريخ . وهـــذا التلخيص مؤلف من ثلاث نقاط :

١ً — ان المعطى الذي نتجاوزه في كل لحظة ، بمجرد أن نعيشه ، لا يرجع فقط الى الشروط المادية لوجودنا، بل لا بد ان ندخل فيه أيضاً طفولتنا الخاصة . وطفولتنا هي في الواقع تحسس غامض بطبقتنا ، وبشرطنا الاجتماعي من خلال الزمرة العائلية، وتجاوز اعمى وجهد اخرق لانتزاع انفسنـا من هذا الشرط . وطفولتنا هي العامل الأساسي في تكوين ما يسمى بالطبـع أو المزاج .

٢ً — ان كل مشروع يتطلب ، حتى يتحقق ، ان تتوافر له أدواته الخاصة . والحال ان الإرادة نفسها — مهما كانت — هي نتاج تطور معين للتقنيات ،وللقوى المنتجة عند التحليل الأخير . وإذا كان العمل السياسي يتكشف احياناً عن غموض والتباس ، فهذا راجع بالدرجة الاولى الى التناقضات العميقة القائمة من جهة أولى بين حاجات المشروع ودوافعـه ، وبين أدوات العمل من الجهة الثانية . ولقد انتهى ماركس من دراسته للثورة الفرنسية الى مبدأ نظري تتبناه الوجوديـة كل التبني ، وهو المبدأ القائل

ان القوى المنتجة تدخل ، عند مرحلة معينـة من تطورها ، في صراع مع علاقات الإنتاج، والمرحلة التي تبدأ آنذاك هي مرحلة ثوريـة . لكن هذا المبدأ عـام . انه ينطبق على مرحلة الثورة الفرنسية ككل،لكنه غير كافٍ لدراسةجميع تفاصيلها ومختلف مراحلها الخاصة ، وتناقضاتها . ذلك ان دخول القوى المنتجة في صراع مـع علاقات الإنتاج لا يعني أن كل قـديم قد انتهى ، وان الجديـد هو الذي يفرض نفسه بشكل مطلق . فالدلالات القديمة ما تزال موجودة ، والدلالات الجديدة ما تزال غامضة ، بل غالباً ما تعبر الثانية عن نفسها من خلال الاولى . ولهذا لا يكفي لكي نفهم الثورة الفرنسية مثلاً ان نتحدث عن صراع الطبقة البورجوازية مع العلاقات الاقطاعية ، بل لا بد ايضاً ان ندرس كل زمرة اجتماعية – سياسية على حـدة ، وأن نعترف بأصالتها التي لا يمكن إرجاعهـا . إذن لا يكفي أن نتحدث عن الطبقة البورجوازية بشكل عام، بل لا بد أيضاً أن نتحدث عن الجيروندين والجبليين ومن لا يرتدون السراويل . وإذا كان الماركسيون يلامون على شيء فهو انهم يعتبرون التاريخ موضوعاً ميتاً لمعرفة ساكنة. والحال ان التاريخ مليء بالالتباسات، لكن هذا لا يعني ان التاريخ غير عقلي ، بل يعني فقط ان فيه تناقضات خفية لم تصل الى نقطة النضج . لهذا فمن المناسب أن ننير الحـاضر بالمستقبل ، والتناقض الجنيني بالتناقض الصريح النامي ، وان نترك في الوقت نفسه للحاضر المظاهر الملتبسة التي يفرضها عليه تأرجحه المعاش بين الماضي والمستقبل .

إن الوجودية اذن لا تستطيع إلا ان تؤكد نوعية «الحدث». وهي تسعى الى اعطائه جميع ابعاده . ويقيناً إن الماركسيين لا يجهلون الحدث : انه يعبر في نظرهم عن بنية المجتمع ، وعن الشكل الذي أخذه الصراع الطبقي ، وعن حركة الطبقة الصاعدة . لكن يبدو ان هناك، منذ مئة عام ، نكتة ماركسية تدل على انهم باتوا لا يعلقون عليه اهمية : فالحدث الرئيسي ، في رأيهم ، في القرن الثامن عشر ، ليس هو الثورة الفرنسية ، بل ظهور الآلة البخارية . وبالطبع إن ماركس لم يسر في هذا الاتجاه ، والدليل على ذلك هو كتابه الرائع عن انقلاب لويس – نابليون بونابرت « ١٨ بروميد » . لكن الماركسيين المعاصرين يطلبون من الحدث ان يؤكد صحة التحاليل المسبقة للموقف ، او على الأقل ألا يناقضها . لننظر على سبيل المثال كيف يحلل أحد الماركسيين الفرنسيين التدخل السوفياتي في المجر : « لقد امكن لعمال ان ينخدعوا ، وامكن لهم ان يسيروا في طريق ما كانوا يعلمون انها الطريق التي تقودهم اليها الثورة المضادة ، لكن هؤلاء العمال ما كانوا يستطيعون ألا يفكروا بنتائج هذه السياسة ... ما كانوا يستطيعون ألا يقلقوا من رؤيتهم (الخ)... ما كانوا يستطيعون ان يشهدوا بدون استنكار عودة الوصي هورثي ... » . إن هذا النص – ذا الهدف السياسي أكثر منه نظرياً – لا يقول لنا ماذا صنع العمال المجريون ، بل ماذا كانوا لا يستطيعون ان يفعلوه . ولمَ كانوا لا يستطيعون ؟ لأنهم لا يستطيعون ان يناقضوا ماهيتهم الأبدية كعمال اشتراكيين .

وهكذا تتحول هذه الماركسية الستالينية الى مذهب سكوني ، ولا يعود العامل كائناً واقعياً يتغير مع العالم ، بل يصبح مثالاً افلاطونياً . وهكذا يسقط المعاش في جانب اللاعقلي واللامفيد.

وترد الوجودية على ذلك بتأكيد نوعية الحدث التاريخي . والمنهج الذي تتبعه في دراسة هذا الحدث هو المنهج التقدمي التراجعي . وهو منهج استنباطي يستطيع ان يصل الى نتائج جديدةفي الدراسة.والحال ان الماركسيين حين يدرسون موضوعاً من المواضيع لا يأتون بشيء جديد ، فهم يعرفون مسبقاً ما سيكتشفونه . والهم الأول للمنهج الوجودي ، شأن هم الماركسيين ، هو اعادة وضع الإنسان في اطاره . انه يطلب من التاريخ العام ان يكشف له عن بنى المجتمع المعاصر وتناقضاته وحركته . لكن مثل هذه المعرفة الكلية تظل مجردة بالنسبة للموضوع المدروس . وصحيح ان الكلية تشرط الموضوع ، لكن الموضوع يشرط الكلية بدوره . وصحيح ان تأثير الموضوع مسجل في الكلية ، لكنه يظل ضمنياً ومجرداً . ومعروف عن الماركسي المعاصر انه يتوقف عند هذا الحد : فهو يزعم انه يكشف الموضوع في التطور التاريخي وانه يكشف التطور التاريخي في الموضوع . والواقع انه يستعيض عن الاثنين معاً بمجموعة من الاعتبارات المجردة التي ترجع فوراً الى المبادىء . في حين ان المنهج الوجودي يريد ان يظل استنباطياً ، فهو لا يملك من وسيلة غير هذا«الذهاب والاياب» اي التقدم والتراجع. انه يحدد السيرة الذاتية على سبيل المثال بتعميق العصر ، والعصر

بتعميق السيرة الذاتية . انه لا يريد ان يدمج الاثنين فوراً ، بل يبقي عليهما منفصلين الى ان يتم اندماجهما تلقائياً ، وعندها يتوقف البحث .

٣ً – اذن فالانسان يتحدد بمشروعه . وينبغي ألا نخلط بين المشروع والارادة التي ليست إلا كياناً مجرداً ، بالرغم من أن المشروع يتخذ في بعض الظروف شكلاً إرادياً . كما ينبغي ألا نخلط بينه وبين الحاجة أو الهوى ، وان كانت حاجاتنا وأهواؤنا وارادتنا تشارك في بنية المشروع . إن المشروع هو الوجود بعينه . إنه ذلك التطلع الدائم الى التجاوز ، الى الخروج من الذات والانسلاخ عنها . وهو ما نسميه ايضاً بالاختيار أو الحرية . والمشروع هو ايضاً القدرة على الكشف . إنه بتطلعه الى المستقبل ، يكشف من المعطى والحاضر . واذا كان غوستاف فلوبير على سبيل المثال قد اختار الكتابة ، فهو يكشف لنا بذلك عن معنى خوفه الطفولي من الموت . وليس هو خوفه الطفولي من الموت الذي جعله يختار الكتابة . ولأن الماركسية المعاصرة (لنلاحظ أن سارتر عندما ينتقد الماركسية يضيف دوماً : المعاصرة) تجاهلت هذا المبدأ ، منعت نفسها من فهم الدلالات والقيم .

إننا لا نستطيع اذن أن نفهم الانسان أو أبسط حركة من حركاته ، إذا لم نتجاوز الحاضر الصرف ونفسره بالمستقبل . والانسان بتجاوزه الحاضر الى المستقبل ، يخلق الدلالات . ولقد أدركت صناعة السينما هذه الحقيقة : إنها ترينا مثلاً حفلة عشاء ثم تقطع المشهد . وبعد لحظات ترينا أقداحاً مسفوحة

وزجاجات فارغة وأعقاب سجاير تملأ الأرض ، وهــذه الأشياء تكفي وحدهـــا لتدلنا على أن الضيوف قد سكروا . وهكذا فإن الدلالات تأتي من الانسان ومن مشروعه ، لكنها مسجلة في الوقت نفسه في الأشياء . إن كل شيء ، في كل لحظـــة ، دال ، والدلالات تكشف لنـــا عن بشر وعن علاقات بين البشر من خلال بنى مجتمعنا . لكن هذه الدلالات لا تتجلى لنـــا إلا بقدر ما نكون نحن أنفسنا دالين . ان تفهمنا للآخر ليس تأملياً البتة: إنه لحظة من حياتنا وطريقة في عيش العلاقة العينية والانسانية التي تربطنا به .

والدلالات متنوعة . فمنها مـــا يرجعنا الى حدث أو موقف معاش كتلك الكؤوس المحطمة التي تدلنـــا على انقضاء سهرة فجور . ومنها ما يكون مجرد إشارة كالسهم الدال على اتجـــاه الطريق . ومنها ما يكون رمزاً كالعلم الرامز الى الأمة . ومنها مـــا يتخذ طابع الأداة والوسيلة كالممر بين المسامير المخصص للمشاة . ومنها ما يكون غاية .

والحال ان الماركسي المعاصر المتشرب بالنزعة « الوضعية » ينكر وجود النوع الأخـــير من الدلالات . مع أن الارتباط بالغايات هو البنية الدائمة للمشاريع الانسانية ، ومـــع أن البشر يقدرون الأعمال او المؤسسات أو المنشآت الاقتصادية على أساس هذا الارتباط . وهـــذا يعني أن تفهمنا للآخر يجب أن يتم بالضرورة عن طريق تفهم الغايات . إننا اذا مـــا أردنا أن نفهم عمل انسان ، بكل ما فيه من حركات ومراحل ، فعلينا أن

نتبين النتيجة التي يريد أن يصل إليها ، والا فقدت حركاته كل دلالة . ولو أردنا ان نحبط حيل الخصم على سبيل المثال ، فلا بد أن نكون مالكين لعدة أنظمة من الغـــايات في آن واحـــد . والماركسية الحقة ، ومعها الوجوديـــة ، تعترف بوجود الغايات أنى وجدت وتكتفي بالقول بأن البعض منها يمكن أن يلغى مفعوله في قلب عمليـــة التوحيد الكلي التـــاريخي . ان الحركة الديالكتيكيـــة التي تذهب من الشرط الموضوعي الى الصيرورة الموضوعية تسمح لنا بالفعل أن نفهم ان غـــايات النشاط الانساني ليست كيانات غامضة ومضافة اضافة الى الفعل نفسه : إنهـــا تمثل تجاوز المعطى والحفاظ عليه في آن واحد في فعل ينطلق من الحاضر الى المستقبل . والغاية هي الصيرورة الموضوعية بعينها ، باعتبار انها تشكل القانون الديالكتيكي لسلوك انساني ، ووحدة تناقضاته الداخلية . وحضور المستقبل في قلب الحـــاضر لن يدهش أحداً اذا ما فهمنا ان الغاية تغتني مع اغتناء العمل . انها تتجاوز هذا العمل باعتبار أنها وحدته لكن مضمون هـــذه الوحدة ليس أكثر عينية ووضوحاً من المشروع الموحد . إن رواية « مدام بوفاري » تشكل وحدة جميـــع أعمال فلوبير طيلة الوقت الذي استغرقته كتابتها . لكن هذا لا يعني أن الروايـــة بجميـــع فصولها وحوادثها وجملهـــا كانت موجودة ، ولو كغياب عظيم ، في حياة الكاتب لحظة بدأ بكتابتها . إن الغاية تتحول ، تنتقل من المجرد الى العيني ، من المجمل الى المفصل . إنهـــا في كل لحظة الوحدة الراهنة للعملية . وهناك أيضاً تسلسل في الغايات .

إننا لا نستطيع أن نفهم الغايـــة المباشرة إلا بالنسبة لتسلسل الدلالات التالية التي تكون كل منهـــا إطار الدلالة السابقة ومضمون الدلالة القادمة . إن الغاية تغتني أثناء تنفيذ المشروع . إنها تطور وتتجاوز تناقضاتها مع المشروع نفسه . وحين تكون عملية الصيرورة الموضوعية قـــد اكتملت ، فإن غنى الموضوع المنتج يتجاوز بما لا يقاس غنى الغاية . لكن هـذا لأن الموضوع لم يعد غاية : فهو قـد أصبح شيئاً موجوداً في العالم ، وهـــذا يقتضي علاقات جديدة لا متناهية . لكنه باعتباره نتاجـــاً موضوعياً ، فإنه يرجـــع بالضرورة الى عملية منقضية كان غاية لها .

واذا مـا رفضنا ان نرى الحركة الديالكتيكية في الفرد وفي عمله على انتاج حياته وفي نزعته الى الصيرورة الموضوعية ، فعلينا إما ان نتخلى عن الديالكتيك او ان نجعل منه قانوناً ملازمـــاً للتاريخ . ولقد شهدنا هذين الموقفين: فالديالكتيك ينفجر أحياناً لدى انجلز ، ويتصادم البشر تصادم جزيئات فيزيائية ، وتكون حصيلة جميع هذه التصادمات ما يسمى بالمعدل الوسطي . غـير أن النتيجة الوسطية لا يمكن ان تصبح من تلقاء نفسها تطوراً ، ولا تفرض نفسها . كل ما هنالك انها تتسجل سلبياً . وقد فضل ماركسيون غير شيوعيين كي يتجنبوا المعدل الوسطي ومـا ينتج من تقديس ستاليني للإحصائيات ، فضلوا ان يذوبوا الانسان العيني في المواضيع المركبـة ، وان يدرسوا حركات وتناقضات المجموعات كمجموعات . ولم يرجوا من وراء ذلك شيئاً . لأن

الغائية التي أرادوا ان يهربوا منهـا ، حلت في المفاهيم نفسها التي يصطنعونها ، وأصبحت البيروقراطية هي نفسها شخصاً. وهكذا هربوا من المذهب الحتمي العلمي الكاذب ليقعوا في المذهب الذاتي المطلق .

إن كل مرة يصبح فيها مشروع انسان ما او زمرة من البشر موضوعاً بالنسبة الى بشر آخرين يتجاوزونـه نحو غاياتهم ، فإن هذا المشروع يحتفظ بغائيته باعتبارها وحدتـه الحقيقية ويصبح حتى بالنسبة للذين يقومون به موضوعاً خارجياً يميل الى السيطرة عليهم والى الاستمرار بعدهم . وهذا يؤدي بالتالي ، وبالإضافـة الى وجود غايات شخصية تصدر عن انسان او طبقة، الى وجود غائيات لاشخصية مستقلة بذاتها ، تفرض نفسها على مشاريعنا . والحق ان الحقل الاجتماعي مليء بأفعال لم يفعلها أحد وبنباءات لم يبنها أحد.

وهـذا لا يعني بالطبع ان كل شيء إما ان يكون غائيـة شخصية أو لا شخصية . فالشروط المادية تفرض ايضاً ضرورتها الواقعية : إن عدم وجود فحم في ايطاليا على سبيل المثال ، قد حدد كل تطور هذا البلد صناعياً في القرنين التاسع عشر والعشرين. لكن ماركس نفسه قد ألح على أن المعطيات الجغرافية او غيرها لا يمكن ان تؤثر إلا في اطار مجتمع معين حسب بنيته ونظامـه الاقتصادي ومؤسساتـه . وهذا معنـاه بكل وضوح ان اثر الشروط المـادية لا يمكن ان يفهم إلا من خـلال الإنشاءات الانسانية، وان الضرورة والغائية متمازجتان اعظم التمازج . واذا

مـا فهمنا هذه الحقيقة ، حقيقة ارتبـاط الضرورة بالغائية ، استطعنـا ان نعطي الموضوع حقه بالنسبة للمجموع الاجتماعي ، واستطعنـا ايضاً أن نفهم دور الفرد والانسان داخل الصيرورة التاريخية .

وبناء على هـذه الملاحظات الثلاث يخلص سارتر الى النتيجة التالية :

إن الإنسـان يحتل في نظر الوجودية مكانة ممتازة . اولاً لأنه يستطيـع أن يكون تاريخياً، اي أن يحدد نفسه بلا انقطاع بعمله من خلال التغيرات الطارئة وتجاوزها . وثانياً لأنه يتصف بأنـه الموجود الذي هو نحن . وهكذا يكون السائـل هو المسؤول . وهكذا تكون المعرفـة نفسها عملية لا تأملية : فهي تغيـير المعروف .

وهذه الاعتبارات هي التي تبين لنا لماذا تجد الوجودية نفسها على وفاق عميق مع الفلسفة الماركسية ، وتحتفظ في الوقت نفسه مؤقتاً باستقلالها كعقيدة في الوجود . ان الماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي تنظر الى الانسان في كليته ، اي بدءاً من مـادية شرطه . لكن الوجوديـة تكتشف الصدع في قلب الماركسية بالذات لا خارجها ، وهذا الصدع هو على وجه التحديد ميـل الفكر الماركسي المعاصر الى استبعاد السائل والى تحويل المسؤول الى موضوع لمعرفة مطلقة . واذا كانت الوجوديـة تطمح الى ان تحل لغز التاريـخ حلاً ديالكتيكياً ، فليس هـذا لأنها ترفض الماركسية ، بل لأنها لا تقبل بذلـك المذهب الحتمي الميكانيكي

الذي ليس هو من الماركسية بشيء، وإن كان قد اضيف اليها من الخارج . انها تريد هي الأخرى أن تضع الانسان في إطار طبقته وفي صراعه مع سائر الطبقات بدءاً من علاقات الانتاج . لكنها تحاول هذه « الموضعة » بدءاً من الوجود ، اي من التفهم . انها تجعل من نفسها مسؤولة وسؤالاً بمقدار ما تجعل من نفسها سائلة . انها لا تعارض ، كما عارض كيير كغارد هيغل ، المعرفة الشمولية بالتفرد اللاعقلي . لكنها تريد ان تدخل من جديد في المعرفة الشمولية نفسها تفرد المغامرة الانسانية . وباختصار انها تريد ان تحول هذه المعرفة الشمولية من معرفة مجردة الى معرفة عينية . وهي تعتبر عملها هذا ضرورياً، لا لشيء إلا لأن الفقر الذي اصيبت به الماركسية من هذه الناحية هو في الواقع إفقار لإنسان القرن العشرين نفسه ، وذلك باعتبار أن اطار المعرفة اليوم هو الماركسية ، ولا وجود لمعرفة غيرها .

لقد علق عدد من اللافتات على جدران وارسو عام ١٩٤٩ ، وكانت هذه اللافتات تقول : « السل يعرقل الانتاج » . ولعل ما من عبارة كهذه تدل على إبعاد الانسان واستلابه . إن هذه اللافتات لا تعترف للإنسان حتى بدوره كوسيط بين المرض وبين تضاؤل كمية الانتاج الصناعي . وهذا دليل على استلاب جديد مزدوج وقع فيه المجتمع الاشتراكي : فالشغيل يصبح في مرحلة معينة من نمو هذا المجتمع مستلباً لحساب الانتاج، والمعرفة تسقط من حسابها الأساس الانساني .

وهذا الإقصاء للانسان من المعرفة الماركسية هو الذي سمح

للفكر الوجودي بأن يولد من جديد خارج عملية التوحيد التاريخي الكلي التي تقوم بها هذه المعرفة . وعلى هذا فإن استقلال البحث الوجودي ينبع بالضرورة من سلبية الماركسيين لا الماركسية . وطالما أن المذهب الماركسي لا يعترف بفقره ، وطالما انـه يقيم معرفته على ميتافيزيقا متحجرة (ديالكتيك الطبيعة) بدلاً من ان يقيمها على تفهم الانسان الحي ، وطالما أنـه يرفض بحجة اللاعقلانية العقائد التي تريد أن تقيم معرفة الانسان على الوجود الانساني ، فإن الوجودية ستتابع ابحاثها . فالوجودية اذن تتكشف كجزء من النظام سقط خارج المعرفة . وفي اليوم الذي يستعيد فيه البحث الماركسي البعد الانساني كأساس للمعرفة الانطروبولوجية ، فلن يعود للوجودية من سبب للوجود : إذ تكون حركة الفلسفة التوحيدية قد تشربتها وتجاوزتها وحفظتها ، فتكف عندئذ عن ان تكون بحثاً خاصاً لتصبح أساس كل بحث . وكل ما تتمناه الوجودية هو أن تأتي هذه اللحظة بأسرع ما يمكن .

سارتر والمادية التاريخية

رأينا سارتر يلوم الماركسيين المعاصرين على استغنائهم عن دراسة الوجود الانساني بتأكيدهم قانون ديالكتيك الطبيعة. وقد شرح سارتر رأيه هذا بمزيد من الوضوح والصراحة في النقاش العلني الذي دار في الرابع من كانون الأول ١٩٦١ بين أربعة من أكبر المفكرين الفرنسيين، سارتر وجان هيبوليت الوجوديين، وروجيه غارودي وجان بيير فيجييه الماركسيين، حول قانون الجدل، وما اذا كان يجوز لنا ان نتكلم عن ديالكتيك الطبيعة كما نتكلم عن ديالكتيك الفكر والتاريخ؟

من المعروف ان المادية الديالكتيكية، وبتعبير آخر الماركسية، تصر على ان الطبيعة تخضع لقانون الجدل خضوع التاريخ له. ذلك ان ماركس قد قال انه عندما يتوقف جدل التاريخ بانتهاء الصراع الطبقي وقيام المجتمع الاشتراكي اللاطبقي، فإن ديالكتيك الطبيعة سيستمر، وان الانسان سيركز كافة

طاقاته على تطويع الطبيعة . وبالاضافة الى ماركس ، كان انجلز ولينين اشد حماسة ايضاً بصدد قانون ديالكتيك الطبيعة ، وآراؤهما الفلسفية في هذا الموضوع اكثر من ان تحصى .

يفتح سارتر النقاش بقوله :

ليس المقصود ان نعارض الديالكتيك باعتباره قانون الفكر بالديالكتيك باعتباره قانون الطبيعة ، وليس المقصود ايضاً ان نعارض المذهب الميكانيكي الذي ادعى لفترة طويلة من الزمن انه أساس العلم ، بالديالكتيك . انما ينبغي ان نطرح المشكلة على صعيد النقد ونظرية المعرفة . فهل لنا الحق اليوم ، في الظروف الراهنة ، ان نتكلم عن جدل الطبيعة ، كما لنا الحق في ان نتكلم عن جدل التاريخ ؟ معروف ان جدل التاريخ كان السباق في الظهور . ولقد ظهر كاكتشاف متواقت مزدوج : من جهة أولى ، اكتشاف قانون تطور الواقع التاريخي ، الذي هو قانون ديالكتيكي ، ومن الجهة الأخرى اكتشاف قانون تطور معرفة هذا الواقع . وقانون تطور المعرفة هذا يتخذ مظهراً مزدوجاً ، ذلك ان المعرفة تتطور ديالكتيكياً باعتبارها معرفة بشيء هو بحد ذاته ديالكتيكي ، وتتطور ديالكتيكياً في واقعها بالذات باعتبارها مشروطة بالتاريخ في واقعه . وباختصار ، لقد ظهر التاريخ الانساني كعملية ديالكتيكية في لحظة معينة من التاريخ بالذات ، وبالتالي فإن اكتشاف المعنى الديالكتيكي للتاريخ والمعرفة مشروط ديالكتيكياً هو نفسه بالتاريخ كله . ومع هذا الاكتشاف ، يصبح ذلك التناثر الميكانيكي الذي كان يدعى

بالتاريخ — ذلك التاريخ الذي كان قائماً على نظرية انف كليوباترا التي تقول إنه لو كان أنف كليوباترا اقصر لتغير وجه العالم — أقول ، مع هذا الاكتشاف يصبح التاريخ المفهوم على انه تبدد وتناثر مجرد عَرَض ظاهري . ولقد بات الفكر يستطيع ، عن طريق هذا الاكتشاف ، ان يفهم الواقع التاريخي على انه توحيد كلي ، ويستطيع في الوقت نفسه ان يكتشف نفسه وسط التاريخ كعلة قادرة على التوحيد الكلي ، وكمعلول موحد كلياً . ان الانسان بات يستطيع ان يكتشف العمق الذي هو الكل ، ويجد نفسه في الكل . اذن فهناك قدرة للديالكتيك على فهم نفسه من وجهة نظر المعرفة . وأهم مقومات هذا الديالكتيك هي الكلية. وثمة جملة ذكرها ماركس في«بؤس الفلسفة » تستطيع ان تقدم لنا مفتاح الديالكتيك التاريخي ، الجملة المشهورة التي تقول إن علاقات الإنتاج تؤلف كلاً واحداً . وهذا معناه انه مهما كانت الواقعة التي ندرسها ، فإن علينا ان نرجعها الى ذلك الكل التاريخي الذي هو علاقات الانتاج . وهذا الكل قائم على حقيقة ان الانسان نفسه، الفرد البيولوجي هو كل : بحاجته ، وعمله ، وتمتعه في ظروف تاريخية معينة . وانما على مستوى هذه المادية العملية يجب ان نجد الكلية ، وانما فوق الكلية الإنسانية لكل فرد تقوم كلية الواقعة الاقتصادية او كلية واقعة الإنتاج . ولهذا يضيف ماركس : « إن العيني عيني لأنه تركيب لعدة تحديدات،وبالتالي لأنه وحدة التعدد..»

ولقد كان هيغل اول من اراد ان يمد نطاق الديالكتيك

التاريخي الى الطبيعة . وتبعه في ذلك عدد من المفكرين بعد ماركس . واقول « بعد ماركس » لأن ماركس كان غامضاً ومبهماً بعض الشيء حول المسألة . وما المادية الديالكتيكية الا ما يسمى ديالكتيك الطبيعة . ان بعض الماركسيين يتصورون ان مجموع المعارف المكتسبة لا يمكن ان يفهم ويعمق دون ان يطبق المنهج نفسه على سائر بني الطبيعة .

فباسم اي شيء ارادوا ذلك ؟ باسم مبدأ نقبل به جميعاً : مبدأ نظرية المعرفة الذي ينص على وحدة المعرفة والعلم . فلا بد من وجود معرفة واحدة. وبالفعل ان وحدة المعرفة التاريخية مطلوبة ، لأن التاريخ عملية توحيد كلي على صعيد المكان والزمان في آن واحد . لكن بعض الماركسيين يريدون كما قلنا ان يدمجوا الطبيعة بالتاريخ . وهذا يقتضي أولاً ان تكون العمليات الطبيعية ديالكتيكية من حيث المبدأ ، ويقتضي ثانياً ان يكون الانسان غارقاً في الطبيعة . وسوف نتكلم عن النقطة الاولى فيما بعد . اما النقطة الثانية فهي أسهل منالاً بالنسبة الى الجميع . يقولون لنا : ان الانسان غاطس في الطبيعة . لا شيء اصح من ذلك . بل لنضف ان الانسان كائن طبيعي . لكن ماركس عندما درس الانسان ، اكتشف فينا وخارجاً عنا ان الطبيعة لا تفهم أبداً في ذاتها . بل اننا نعرفها من خلال عمليات الإنتاج التي تولد مؤسسات . وهذا معناه ان هناك رابطة ديالكتيكية . لكنها رابطة من طرف واحد . لنأخذ مجتمع الاسكيمو مثلاً . انه يتلاءم ويتكون وينتج من خلال واقعة

معينة ، هامدة بالنسبة الينا : واقعة البرد . والحال ان البرد ليس ظاهرة ديالكتيكية بالنسبة للانسان . انه شرط دائم من شروط وجود هذه الجماعة ، ونحن نستطيع ان نكتشف ، من خلال المجتمع ، كيف تكون هذا المجتمع ليحارب البرد ، بل حتى ليستفيد منه احياناً . وعلى هذا فإن الرأي المثالي المتشائم الذي يحول الانسان الى مجرد انتاج طبيعي ، تفنده الاطروحة التاريخية الديالكتيكية التي تنص على ان الطبيعة تؤثر في المجتمع من خلال المجتمع نفسه . نستطيع إذن ان نقول ، بشكل عام ، انه ثمة حقيقة ديالكتيكية على المستوى الانساني ، قابلة لأن تفهم كل الفهم ، ومرتبطة بالطبع بوسط طبيعي معروف ، لكنها ليست بحاجة البتة الى ان تؤكد ديالكتيك الطبيعة . واذا اردنا ان نفهم هذا المجتمع الانساني ، فلا داعي البتة الى ان نفهم القوى الطبيعية (هنا : البرد) على غير حقيقتها كقوى خارجية سلبية . وكل تاريخ العلم الحديث يؤكد ان الانسان يستخدم الادوات والآلات لما فيها من عطالة لا لحركتها الديالكتيكية . والانسان هو الكائن الديالكتيكي وسط طبيعة خارجية . وحتى البيولوجيا لا تستطيع ان تقدم لنا تفسيراً للواقع الانساني . ان عدم وجود البروتيئين لا يفسر حالة الأمور قبل الثورة الفرنسية (وإن كان البروتيئين مادة نادرة الوجود آنذاك في العضوية الانسانية)، وعلى العكس ، فإن نمط المجتمع السائد آنذاك يسمح لنا بأن نفهم غياب البروتيئين. ثم ان المعرفة التاريخية اكثر تطوراً من المعرفة البيولوجية .

وباختصار ان الديالكتيك الانساني يكفي نفسه . وإذا كان البعض يعتقد انه لا يكفي،فإنه سيطرح اسئلة ولا يتلقى جواباً. وعلى كل ، فأنا اعتقد شخصياً ان مسألة ديالكتيك الطبيعة تخص العلماء لا الفلاسفة . انها لمهمة العلماء ان يقولوا لنا هل العمليات الطبيعية عمليات ديالكتيكية او لا .

إن السؤال الذي نستطيع أن نوجهه الى العلماء هو : هل هناك كليات أو عمليات توحيد كلي في الطبيعة ؟ وهل هناك عملية توحيد كلي للمجموع تكون هي الطبيعة ؟ هذان هما السؤالان اللذان أحب أن أوجهها الى العلماء ، لأنني مرة أخرى أكرر انه ليس من مهمة الفلاسفة أن يقرروا ذلك . وكل ما استطيع هنا أن أقوله هو ان العلماء لم يستطيعوا أن يجيبوا بالإيجاب على هذين السؤالين حتى الآن .

ولنعد الآن الى النقطة الأولى: هل العمليات الطبيعية عمليات ديالكتيكية ؟ فلكي يوجد ديالكتيك للطبيعة ، ينبغي أن تكون الطبيعة كلية .

وبالفعل ، حين يحدد ماركس سير التاريخ الديالكتيكي ، ينطلق من فكرة ان علاقات الإنتاج تؤلف كلاً واحداً . فهل نستطيع أن نجد في الطبيعة حادثة فيزيائية – كيائية تكون تعبيراً عن كل هو الطبيعة ؟ إن علماء الفيزياء يعتبرون الطبيعة لامتناهية، بل لامتناهية الى حد لامتناهٍ . وهذا اللاتناهي واقع ملموس ، محسوس . لكن هل يمكن لمثل هذا الواقع أن يكون ديالكتيكياً ، في حين أنه يستبعد كل كلية؟ وعلى فرض ان في

الطبيعة ديالكتيكات جزئية ، إلا اننا لا نستطيع أن نستنتج ان هناك ديالكتيكاً كونياً .

إن الديالكتيك يفقد معناه ، وتختفي قدرته على فهم نفسه ، إذا نقلناه الى عـالم الطبيعة . ترى هل يمكننا أن نقول ان التعارضات داخل نظـام فيزيائي – كيميائي هي تناقضات ؟ أليس من الواضح أن تناحر القوى التاريخية ذو طبيعـة تختلف عن طبيعة تنـاحر القوى الفيزيائية – الكيمائية ؟ إن الزمرة في التناقض التاريخي لا تنفي أختها فحسب ، بل تكون مشروطة أيضاً بحضورها . ويمكن للقوى الفيزيائية أن تكون متعارضة . لكن هل تكون بنيـة كل قوة مشروطة بهـذا التعارض ؟ والتركيب العملي ، الذي هو توحيـد القوى المتناقضة ، الموجود فعلياً في عالم التاريخ الانساني ، هل له وجود في عـالم الطبيعة الكمي ؟

إن هـذه الملاحظات تدفعنا الى أن نرفض ذلك المذهب الدوغمائي القائل بوجود ديالكتيك كوني للطبيعة . لكن هذا لا يعني في الوقت نفسه اننا نعيد الاعتبـار للمذهب الميكانيكي . كل مـا هنالك اننا نريد أن نؤكد على نوعية الديالكتيك التاريخي ، وعلى ان حدود المعرفة واليقين تصغر كلما ابتعدنا عن نطاق المجتمع الانساني . وبتعبير آخر نقول : ان هناك حدوداً للتعليل الديالكتيكي . إن عالم الانسان هو العـالم الذي نصنعه والذي يصنعنا . فعندما نترك هذا العـالم ، ماذا يبقى ؟ مجرد تشابيه وتجانسات .

قـدر سـارتر

نكون حتى الآن تكلمنا عن موقف سارتر من المـاركسية كفلسفة . والحال ان سارتر لم يكتف بأن يأخذ موقفه النظري من الماركسية ، ولو كان اكتفى بذلك ، لما كان لتفكيره الأهمية التي له اليوم . لقد أراد سارتر من وراء جميع كتاباته ان يغير . وان يغير باتجاه الاشتراكية . لكن الاشتراكية التي ارادها والتي ناضل طويلاً وتخبط طويلاً من اجلها ، لم تكن في نظره الغـاية المطلقة . ان الإنسان هو الغاية المطلقة في نظره ، وبتعبير أدق حرية الانسان . ذلك ان الإنسان قبل كل شيء حرية . حرية تتطلب ان تتحقق ، تتطلب ان يعترف بها ، تتطلب ان يكون لها وجودهـا الشرعي الفعلي ، العيني ، على اساس من شروط اجتماعية واقتصادية ، شروط تاريخية لا تهدد دومـاً باستلاب هذه الحرية ، بل على العكس تهيىء لهـا الجو الضروري لتتفتح وتبدع .

والحال ان الشروط التاريخية الوحيدة التي تستطيع ان تعيد للحرية ملكوتها في مجتمع اليوم هي الشروط الاشتراكية . ان الاشتراكية لم تكن قط في نظر سارتر غاية مطلقة ، بل كانت وسيلة لغاية مطلقة هي الحرية . وإذا كان من الطبيعي ان يعلن سارتر منذ البداية ، عداءه لليمين باعتبار ان اليمين هو عدو الحرية الاول في هذا العالم ، إلا ان هذا لم يمنع سارتر من انتقاد الشيوعيين ومن انتقادهم بعنف شديد احياناً لأنهم اساؤوا كثيراً للحرية ، مع ان المفروض فيهم ان يكونوا أنصار الحرية ، وذلك من خلال اساءتهم للقضية الاشتراكية ، إن على الصعيد النظري حين حجروا الفلسفة الماركسية ، وإن على الصعيد العملي حين أيدوا الستالينية ، هذه الستالينية التي كلفت مئات الألوف من الضحايا باسم الاشتراكية والحرية بالذات .

لقد آمن سارتر ان البروليتاريا هي وحدها التي ستبني وتستطيع ان تبني الاشتراكية. وآمن ايضاً بأن الحزب الشيوعي في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة هو حزب البروليتاريا . فآمن بالتالي ان لا اشتراكية في أوروبا بدون الحزب الشيوعي . لكن سارتر لم يستطع ان يكون شيوعياً ، لأنه لم يكن يستطيع ان يسكت عن أخطاء الشيوعيين وعن اغتصابهم للحرية في أكثر من مناسبة . لقد اراد دوماً ان يكون صديقاً للشيوعيين . لكنه لم يستطع ذلك . أولاً لأنهم لم يرغبوا في صداقته . وثانياً لأن مفهومه العادل عن الصداقة كان يحتم عليه ، في الوقت نفسه الذي يريد فيه ان يكون صديقهم ، ان ينتقدهم باسم هذه

الصداقة بالذات .

ان المرء ليعجب حقاً حين يلاحظ الفـارق الكبير في اللهجة حين ينتقد سارتر اليمين ، وحين ينتقد الشيوعيين . انه أبـــداً يصدر عن حس موضوعي ، صلب ، احتقاري ، متعال حـين يهاجم اليمين . لكنه بالمقابل يصدر عن حس نستطيع ان نصفه بأنه مأساوي حين ينتقد الشيوعيين . ذلـــك انه عندما ينتقد الشيوعيين ، يتمنى في اعماقه لو انه لم يكن ثمة داعٍ لانتقادهم ، تماماً كما رأيناه يتمنى لو ان الماركسية لم تتحجر ولم تفسح بالتالي المجال لظهور الوجودية . وتماماً كما قـال عن الوجودية انها عقيدة طفيلية ظهرت على هامش الماركسية ، كذلك فإنه يشعر اثنـاء نقده للشيوعيين انه طفيلي ، لأن اليمين يستغل أولاً هذا النقد ، ولأن الطبقة الوحيدة التي يريد ان يوصل صوته اليها،البروليتاريا، لا تقرؤه بسبب السد الذي اقـــامه حولهـا الحزب الشيوعي ، وبسبب شكها في كل « مثقف » يخاطبهـــا وهو بعيد عنها وعن حياتها .

غالباً ما اتهم النقاد سارتر بـأنه عقلاني ، متصلب . والحال ان من يقرأ سارتر في كتاباته حول الشيوعيين يشعر بخطأ اولئك النقاد الفاضح ، لأنه يشعر انه امام مثقف متمزق فعلاً ، يبحث أبـــداً عن منفذ الى صداقـة لم تستطع قط ان تصبح شرعية .

لقد قرأت مؤخراً جملة لكاتبة تدعى ماريا كريبو اعجبتني ، بل اثرت في للغاية . فقد قالت عن سارتر : « كما ابتلي بروميثيوس بغرابه ، ابتلي سارتر بكانابا » . وكانابا هو كاتب شيوعي فرنسي

معاصر كان وراء كل حملة شيوعية وجهت ضد سارتر . وبالفعل، لقد لعب الشيوعيون دور القدر بالنسبة لسارتر ، هذا « القدر » الذي سخر سارتر من كتاب كثيرين لإيمانهم به .

وإذا كنا هنا نريد ان نرسم قصة صراع سارتر مع «قدره»، الا اننا لا ندعي انـنـا نستطيع ان نرسم هذه الصورة كاملة . فسارتر هو وحده القادر على ان يقدم لنا هذه الصورة الكاملة ، ولعل هذا ما سيفعله في مذكراته التي اصبحت وشيكة الصدور. كما اننا لن نحاول ان نرسم هذه الصورة الناقصة من الخارج ، من وجهة نظر الذين عرفوا سارتر وكتبوا عنه (مع تقديرنا العميق لمذكرات سيمون دي بوفوار من هذه الناحية).لكننا سنكتفي بأن نرسم هذه الصورة من خـلال كتابات سارتر نفسه ، او بالأحرى من خلال ما هو متوافر بين ايدينا من كتاباته.

حين توفي موريس ميرلو بونتي ، الكاتب الوجودي الكبير ، عام ١٩٦١ ، أصدرت مجلة « الأزمنة الحديثة » عدداً خاصاً بهذه المناسبة . وكان من بين الذين ساهموا في تحرير هذا العدد جان بول سارتر في مقال مطول له استغرق أكثر من سبعين صفحة من المجلة تحت عنوان « ميرلو بونتي حياً » . وقد حـاول سارتر في هذا المقـال أن يرسم صورة صديقه كما عرفـه ، لكنه رسم في الوقت نفسه جزءاً كبيراً من صورته ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقته بالشيوعيين . وسنحاول فيما يلي أن نستخلص هـذه الصورة كما رسمها سارتر نفسه .

لم يكن سارتر في عام ١٩٣٧ أكثر من بورجوازي مشمئز من

طبقته وتعاليمها. وكان شأنه شأن كل بورجوازي متمرد يتساءل عن : لماذا نحيا ؟ ما الحياة ؟ ولم يكن أساتذته ، في دار المعلمين العليا ، وعلى رأسهم ليون برانشفينغ ، بقادرين على الإجابة على هذه الأسئلة . بل كانوا يرون أنه لا مبرر لطرحها ، ولا علاقة لها لا بالفلسفة ولا بالفكر . وذلك لأنهم كانوا يجهلون التاريخ . في حين أن سارتر كان يتحسس هـذا التاريخ ، أو بالأحرى « تاريخيته » ، تحسساً غامضاً. ولذلك لم يكن سارتر يملك إلا أن يحتقر أساتذته ويحتقر معهم كل مسؤول في هذا العالم . وهذا الاحتقار للمسؤولين والمسؤولية تجلى واضحاً عندما دعي سارتر لخدمة العلم فرفض أن يكون ضابطاً حتى لا يتحمل مسؤولية ، وخدم كجندي عادي رغم أنه كان يحمل شهادة الاغريغاسيون. وهذا الموقف الرفضي هو ما سماه سارتر فيما بعد « فوضويتي في فترة ما قبل الحرب » . وفي مدينة الهافر حيث كان سارتر يمارس التعليم ، اكتشف كتابات هوسرل وهيدجر ، وكانت روايته « الغثيان » عام ١٩٣٨ . ثم وصل الى الفينومينولوجيا ورحل الى برلين ليقيم فيها عاماً كاملاً .

ولم يستطع سارتر أن يكتشف « تاريخيته » بالمعنى الصحيح إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال النازيين لفرنسا . فآنذاك تشكلت في جميع أرجاء فرنسا فئات صغيرة من المثقفين تطمح الى مقاومة العدو المنتصر . وانتسب سارتر الى إحدى هذه الزمر « الاشتراكية والحرية » . ولم يكن انتسابه هذا غريباً . فقد كان ضميره المسلكي كما يقول وذوقه وثقافته تدفعه ،

وهو سليل البورجوازية الصغيرة الجمهورية النزعة ، الى الدفاع عن حرية القلم . وسرعان ما تلاشت هذه الزمرة بعد عام واحد نظراً لأنها كانت لا تعرف ماذا ينبغي عليها أن تعمل . لكن سارتر تعرف الى نفسه من خلال هذه المرحلة التي تآخت فيها جميع قلوب الفرنسيين لمقاومة النازي ، وصارت شعاراته : الوجود والحرية والمسؤولية والفينومينولوجيا .

لكن تفكيره كان ما يزال غامضاً مشوشاً .

وصحيح أن ميرلو بونتي كتب في العدد الأول من مجلة « الأزمنة الحديثة » في تشرين الأول ١٩٤٥ تحت عنوان « الحرب قد وقعت » متحدثاً عن نفسه وعن سارتر بقوله : « باختصار ، لقد تعلمنا التاريخ ونقول انه ينبغي ألا ننساه » . إلا أن سارتر يذكر أن ميرلو بونتي لم يستعمل ضمير الجمع إلا من قبيل المجاملة ، ويعترف أنه كان بحاجة الى سنوات عديدة قبل أن يتعلم ما كان يعرفه ميرلو بونتي آنذاك عام ١٩٤٥ . وبالفعل كان ميرلو بونتي قد توصل آنذاك الى الإيمان بأن مفهومه عن الوجود لا يتعارض والماركسية ، وبالتالي فإن العبارة الماركسية المشهورة « البشر يصنعون التاريخ على أساس الظروف السابقة » كانت تبدو في نظره ترجمة ماركسية لتفكيره الخاص . وبالفعل أيضاً ، وبمقدار ما رحب المثقفون الشيوعيون بميرلو بونتي ، هاجموا سارتر ، لأن أفكاره السياسية المشوشة آنذاك كان يمكن أن تضر في نظرهم .

وهكذا كان سارتر يبدو كتلميذ لميرلوبونتي . وكان يشاركه

آراءه دون ان يفهمها حق الفهم . وهذا ما عبرنا عنه في بداية هذه الدراسة ، عندما قلنا ان ميرلو بونتي كان أول من تنبه الى ان المصير المرجو للوجودية هو ان تندمج بالماركسية . وإذا كان المجال قد أتيح لسارتر ليتكلم عن تطور ميرلو بونتي بعد موت هذا الأخير ، فإننا نستطيع ان نعتبر ان كل ما قاله سارتر عن تطور ميرلو بونتي في تلك الفترة ، فترة ١٩٤٥ ، ينطبق عليه هو نفسه . وبالفعل كان سارتر يؤمن مع ميرلو بونتي انه لا يمكن للمادية التاريخية ان تكون النور الوحيد للتاريخ وان الخطأ الاساسي فيها انها تنظر إلى العالم من فوق ناسية انه يغلفنا . لكن هذه التحفظات لم تكن تعني انه يرفضها رفضاً قاطعاً ، بل كان يعتبرها ، مع ميرلو بونتي دائماً ، فكرة ناظمة : « اذا ما اردنا ان نتجاوز مذهباً من المذاهب، فينبغي أولاً أن نكون قد وصلنا الى مستواه وان نفسر ما يفسره خيراً منه . واذا كنا نضع علامات استفهام امام الماركسية ، فليس ذلك لأننا نفضل عليها فلسفة محافظة للتاريخ تكون اكثر تجربة ايضاً منها » . وبكلمة واحدة، لقد كان ميرلو بونتي ماركسياً لعدم وجود مذهب آخر ، وهذا ما كانه ايضاً سارتر ، لكن بصورة اكثر غموضاً .

وهذا شيء طبيعي كما يقول سارتر نفسه . فالماركسية هي قبل كل شيء فلسفة عملية نابعة من الصراع الطبقي. وانكار هذا الصراع ، يجرد الماركسية من مبررات وجودها بالذات . والحال ان هذا الصراع لم يكن واضحاً عام ١٩٤٥ نظراً لاشتراك الحزب الشيوعي في الحكم مع سائر الاحزاب البورجوازية ، ونظراً

لأن فرنسا كانت ما تزال تعيش في جو « الاخاء » الوطني ضد العدو النـــازي . وصحيح ان مثقفي الحزب الشيوعي الشباب كانوا يؤمنون بالصراع الطبقي بإخلاص ، لكنهم كانوا يؤمنون به ايماناً دون ان يتمكنوا من رؤيته تحت قناع الوحدة الوطنية الخادع . وكان سارتر وميرلوبونتي لا يؤمنان بهـــذا الصراع إلا نصف ايمان ، وهذا مـــا كان يغيظ المثقفين الشيوعيين ، وبخاصة بالنسبة الى سارتر . كانت الحرب قد انتهت وكان معسكران جباران يقفان الواحد في وجه الآخر . وخوفاً من نشوب حرب ثالثة فوراً فضلا ان يحسما الخلاف، فكان مؤتمر يالطا وتقرر فيه : لك مغرب الشمس ولي مشرقها . وكان هـــذا معناه ان الحرب الثالثة واقعة حتماً . ولما كان كل منهما حريصاً على ان يكون هو الغالب فيها، فقـد كان يتفاهم مع الآخر لتأجيلها حتى تتوافر له شروط افضل . لكن ميزان القوى كان بصالح الغرب مؤقتاً : اذن في تلك اللحظةمن التاريخ كانتالثورة قد اصبحت مستحيلة في اوروبا . وما كان لا تشرشل ولا روزفلت ولا حتى ستالين ليسمحوا بها . ومعروف لدينا ماذا حدث للمقاومة اليونانيـــة وكيف صفيت . لقد اصبح كل شيء واضحاً اذن : فالتاريـــخ أصبح واحداً بالنسبة للأرض قاطبـة . وينتج عن ذلك هـــذا التناقض، الذي كان غير واضح آنذاك ، والذي جعل من صراع الطبقات صراعـاً بين الأمم . واذا كانت الثورة قـــد اصبحت مستحيلة بسبب الحرص على حفظ التوازن الدولي ، واذا كان يمكن لقوى اجنبية ان تسحقها وهي ما تزال في حالة جنينية ،

واذا كان على الشغيلة ان ينتظروا تحررهم لا من أنفسهم بــل من حرب كونية ، فالسلام اذن على البروليتاريا . ومما كان يزيــد الطين بلة، ان الحزب الشيوعي نفسه كان يلعب لعبةالبورجوازية في تمييع البروليتاريا . ولقــد كان ميرلوبونتي يلحظ غيــاب البروليتاريا هذا، لكنه كان يدعو سارتر وسائر رفاقه من المثقفين الى تأييد سياسة الحزب الشيوعي . وهذا مــا كان يذهل سارتر باعترافه نفسه .

وفي عام ١٩٤٥ عمل سارتر مــع ميرلوبونتي وسيمون دي بوفوار وريمون آرون على تأسيس مجلة « الأزمنة الحديثة». ولقد كان سارتر يحلم بمثل هذه المجلة منذ عام ١٩٤٣ . كان يعتقد ان الحقيقة واحدة ، ولذلك ينبغي ان نبحث عنها في كل مكان . وكل موقف اجتماعي وكل نتاج – مهما كان ذاتياً أو مهما كان عاماً – انما هو تعبير عن هذه الحقيقة . ان نكتة بسيطة تعكس العصر كما يعكسه دستور سياسي . ولهـذا كان سارتر يعتقد ان عليه ان يكون صياد الدلالات ، وان يقول الحقيقة عن العــالم وعن نفسه . لكنه كان باعترافه لا يفقه شيئاً كبيراً في السياسة، وقد ترك عن طواعية تحرير الشؤون السياسيةفي المجلة لميرلوبونتي. واذا ما أردنا ان نأخذ بعين الاعتبار اكبر ثلاثة مثقفين في فرنسا بعد الحرب الثانية وهم سارتر وميرلوبونتي وكامو ، فنقول ان سارتر كان يقف آنذاك – على حد تعبيره – على يمين ميرلوبونتي وعلى يسار كامو .

وبالفعل لقد كان لميرلوبونتي فضل كبير على سارتر، فهو الذي

هداه وهو الذي كشف انه ليس إلا فوضوياً في عصر فات فيه أوان الفوضوية ، وهو الذي جعله يعرف انه « يصنع التاريخ كما كان السيد جوردان يصنع النثر » . ولقد جاءت الأحداث المتوالية لتحطم في سارتر آخر سدود نزعته الفردية . ولقد كان العصر يتطلب من المثقفين ان يقوموا بتحليل وإنشاء للسياسة الفرنسية . ولقد علم ميرلوبونتي سارتر دون ان يتعالم عليه .

لقد كان ثمة موقفان ممكنان في عام ١٩٤٥ ، في فرنسا . موقفان لا أكثر . الموقف الأول والأفضل هو التوجه الى الماركسيين ، اليهم وحدهم ، وفضح « الثورة » المذبوحة في المهد ، والمقاومة المغتالة ، وانفجار اليسار . والحال انه لكي يفضح المرء الثورة التي ماتت تحت رزء الخيانة ، ينبغي أولاً ان يكون ثورياً : لكن ميرلو بونتي كان قد كف عن أن يكون ثورياً ، في حين ان سارتر لم يكن قد أصبح بعد ثورياً . ولهذا ما كان ميرلو بونتي وسارتر ليعلنا ماركسيتهما في المجلة ، رغم حبهما لماركس . ان الثورة ليست حالة نفسية : انها ممارسة يومية على ضوء نظرية . ولقد كان المثقفون الذين يريدون ان يظلوا في صفوف اليسار وان يفضحوا في الوقت نفسه ما تعرضت له الثورة الاشتراكية من خيانة على أيدي الستالينيين ، مضطرين اضطراراً الى ان يكونوا بشكل من الأشكال تروتسكيين. لكن تهمة التروتسكية كانت تكفي وحدها لطردهم من صفوف اليسار ولظهورهم بمظهر «التحريفيين» . ولقد أدرك سارتر هذا المأزق، بتأثير من ميرلو بونتي ، واختار الموقف الثاني ، أو بالأحرى

فرض عليه هذا الموقف فرضاً .

انه ما كان يستطيع ان يكون ثورياً بالمعنى الصحيح عام ١٩٤٥ .لقد كان سليل الطبقات المتوسطة، وكل ما كان يستطيع عن طريق مجلته هو ان يكون صلة الوصل بين المثقفين البورجوازيين الصغار وبين المثقفين الشيوعيين . لقد تلقى ثقافته وقيمه من البورجوازية الصغيرة . لكن الاحتلال علمه ان هذه القيم لفظية ما دامت في أيدي البورجوازية. ولهذا توجهت المجلة الى أصدقائها في الحزب الشيوعي ليقدموا لها الوسائل اللازمة لانتزاع المذهب الإنساني من ايدي البورجوازية . ولقد كان سارتر يحب ان يتسمى باسم « الانساني النزعة » . وهذا ما دعاه الى ان يطلق على محاضرته التي القاها عام ١٩٤٦ اسم « الوجودية مذهب انساني » . وانما ، حرصاً منه على هذا المذهب الإنساني، المذهب الذي يعني إرادة الحرية والحقيقة والسعادة للبشر ، جاء الى الماركسية ليطلب اليها ان تقدم القاعدة المادية لهذا المذهب. فالقيم الإنسانية البورجوازية الصغيرة التي كان ينادي بها . قد علمته الحرب انها تظل اسمية بدون بنية تحتية اقتصادية وسياسية . ولقد كانت الماركسية هي النظريةالوحيدة التي تقدم هذه البنية التحتية .

وهكذا اعلنت « الازمة الحديثة »انها ستكون رفيقة درب مع الشيوعيين، مع حفاظها علىاستقلالها . لكن الحزب الشيوعي ما كان ليرضى عن موقف كهذا . وبهذا راح مثقفوه يكيلون التهم لسارتر ويصفونه بأنه بورجوازي مشبوه . لكن سارتر

ظل متمسكاً بموقفه . انه سيدافع عن العقيدة الماركسية دون ان يتخلى عن تحفظاته وترددانه ، وسيؤكد في الوقت نفسه انه يسير الى جانب الشيوعيين والى جانب البروليتاريا ، دون ان يتأثر بتهمهم وشتائمهم .

لكن جو « الإخاء » القومي الذي ساد فرنسا بعد الحرب ، وانجذاب البورجوازية الصغيرة نحو اليسار نتيجة للمقاومة السرية ، سرعان ما انتهى أمره مع أول اعلان عن الحرب الباردة : مشروع مارشال الاميركي . واصبح واجباً على كل انسان ان يأخذ موقفه : إما مع هذا المعسكر او ذاك . لكن « الازمنة الحديثة » اصرت على موقفها كوسيط ، وإن لم يكن اي من المعسكرين يأخذ لوساطتها اي اعتبار . وبدأ التفكير يتجه الى تشكيل « التجمع الديمقراطي الثوري » ، ذلك التجمع السياسي الذي ظهر عام ١٩٤٨ والذي اراد ان يدعو الى حياد اوروبا كمحاولة لتجنب النتيجة المحتمة للحرب الباردة . وكان التركيب الاجتماعي لهذا التجمع يدل ايضاً على نزعته الحيادية . لقد كان يقف بين طبقتين : البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة . وانتمى سارتر الى « التجمع » ، آملاً من وراء ذلك ان تتم وحدة اليسار بعيداً عن جو الحرب الباردة ، ومـا تسببه من انحراف يميني في اوساط الحزب الاشتراكي الفرنسي، ومن تصلب ستاليني في أوساط الحزب الشيوعي . لكنه سرعان ما أدرك استحالة تحقق أمله هـذا . فلكي يكون أقرب مـا يمكن من الحزب الشيوعي ، وكي يستطيع ان يجعله يتقبل بعض انتقاداته ، فإن

عليه اولاً ألا يكون ذا فعالية سياسية . والحال ان « التجمع » رغم صغره ، كان يعتمدعلى قوة العدد. فهو بالتالي حرك الأحقاد بدلاً من ان يطفئها كما كان يتمنى . ولقد فوجىء اعضاؤه بالنار الحامية تفتح عليهم من الحزب الشيوعي. أهكذا يعاملهم الحزب الذي ارادوا ان يكونوا رفـاق دربه ؟ وانزلق بعضهم ، نتيجة رد الفعل ، نحو اليمين ، واختار البعض الآخر ان يصبح شيوعياً نهائياً . ومات « التجمع » في المهد ، لكنه لم يتلاش من الوجود نهائياً إلا في حزيران ١٩٤٩ ، عندمـــا اعلن سارتر وعدد من المثقفين انسحابهم منــه ، بعد ان أدركوا انه قد تحول الى إداة في يد اليمين ، بل في يد الأميركان .

لقد كانت تجربة « التجمع » تجربة قاسية بالنسبة لسارتر . لقد ادرك ان عليه ان يعيد النظر في كل تفكيره السياسي ، وإلا فماذا ينجيه من ان يقع في شباك عداء الشيوعية كما كاد يحصل له؟ وقرر سارتر ان يمتنع عن القيام بأي نشاط سياسي فعال : إن عليه من الآن فصاعداً ان يهتم بالمجلة ، وبالمجلة وحدهـا . وفكر بأن يصدر عدداً خاصاً عن الاتحاد السوفياتي الاشتراكي . لكنه قبل ان يقدم على ذلك ، عرف بالنبأ المذهل ، النبأ الذي جعل جميع المثقفين اليساريين الاوروبيين الذين كانوا يعلقون الآمـال على الاتحاد السوفياتي ، النبأ الذي جعلهم يجمون : انـه وجود معسكرات اعتقال في الاتحـاد السوفياتي . معسكرات للعمل الاجباري تذكر بإقطاع القرون الوسطى والمعسكرات النازية، وتضم نحو عشرة ملايين عامل . وفي كانون الثاني ١٩٥٠ ، كتب

ميرلو بونتي افتتاحية حادة في « الازمنة الحديثة » وكان سارتر موافقاً عليها كل الموافقة . فإذا كان هناك عشرة ملايين عامل يعملون في معسكرات الاعتقال ، وإذا كان التسلسل السوفياتي قد سمح بأن تكون رواتب بعض الموظفين اكبر بعشرين مرة من أجور العمال ، فهل ثمة مجال بعد ذلك للحديث عن الاشتراكية في ذلك البلد رغم انه ألغى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ؟ لقد كان مبرر وجود الشيوعيين هو ايمانهم بانبثاق انسان جديد عن النظام الاشتراكي . لكن وجود المعسكرات فضح وهم الشيوعيين . غير ان هذا الوهم بالذات هو الذي منع سارتر وميرلو بونتي من الخلط بين الشيوعية والفاشية . فإذا كان الشيوعيون يقبلون بالاضطهاد والمعسكرات،فهذا لأنهم ينتظرون المجتمع اللاطبقي . وبالمقابل ، فإن ما من نازي اثقل كاهله بعبء افكار كهذه : اعتراف الانسان بالانسان،الصداقة بين الشعوب، المجتمع اللاطبقي . صحيح ان هذه الافكار لا تجد في الشيوعية إلا حاملاً غير أمين لها ، لكن من الصحيح ايضاً ان هذه الافكار تظل موجودة . وتضيف افتتاحية « الازمنة الحديثة » : « اننا نؤمن بالقيم نفسها التي يؤمن بها الشيوعي ... ويمكننا ان نعتقد انه يسيء اليها إذ يجسدها في الشيوعية المعاصرة . الا انها تظل قيمنا ولا علاقة لنا بقيم عدد كبير من خصوم الشيوعية ... ان الاتحاد السوفياتي يقف، بشكل عام، في صف القوى التي تناضل ضد اشكال الاستغلال المعروفة لدينا ... إن علينا إلا نظهر تسامحاً تجاه الشيوعية، لكننا لا نستطيع بأي حال من الاحوال

ان تتحالف مع خصومها . ان النقد النزيه الوحيد هـــو الذي يستهدف الاستغلال والاضطهاد سواء أفي الاتحاد السوفياتي أم في خارجه » .

اذن لقد كان سارتر يعتبر في عام ١٩٥٠ معسكرات العمل الإجباري جريمة ، لكنه كان يقول إن الاتحاد السوفياتي ، مهما تكن جرائمـــه ، له على الديموقراطيات البورجوازية امتياز رهيب : ألا إنه الهـدف الثوري . وصحيح ان وجود تلك المعسكرات لم يكن يقل بشاعة عن وجود مستعمرات خاضعة للديموقراطيات البورجوازية ، هذا إن لم نقل انه يفوقه بشاعة باعتبار انه خيانة للثورة المرجوة بالذات ، الا ان ما لا يستطيع احد ان ينكره هو ان الشيوعيين اوجدوا تلـــك المعسكرات وهم يعتقدون انهم بذلك يخدمون قضية الثورة . وصحيح ان الماركسية قد تبلدت، وان المصاعب الداخلية والضغط الخارجي قد شوهت النظام ، وحرفت المؤسسات ، وحادت بالاشتراكية عن طريقها ، الا ان روسيا تظـل مختلفة عن غيرها من الامم ، ولا يجوز لنا انْنحكم عليها الا إذا قبلنا بشروعها والا اذا حكمنا عليها باسم هذا المشروع بالذات .

وبذلك تكون « الأزمنة الحديثة » قد اعلنت مرة أخرى ، بعد خمس سنوات من صدورها ، انها دوماً إلى جانب الشيوعي، وعلى أقرب ما يمكن منـــه ، لكن لا داخـــله . ان الحزب الشيوعي هو قطبها الوحيد الذي ترنو اليه ، والانتقاد من الخارج هو موقفها الوحيد . اما ان تهاجم الاتحاد السوفياتي وحـــده ،

فهذا معناه انها غفرت للغرب ذنوبه . ولعلها في موقفها هــذا كانت متأثرة بالتفكير التروتسكي : أفلم يكن تروتسكي يقول إنه إذا ما هاجمنا الاتحاد السوفياتي ، فإن علينا في الوقت نفسه ان ندافع عن اسس الاشتراكية ، اما البيروقراطية الستالينية فليست هي الرأسمالية التي ستصفي الحساب معها ، بل ستتولى ذلك البروليتاريا الروسية .

لقد قلنا إن سارتر كان موافقاً على هذه الآراء كل الموافقة ، لكن هل يعني هذا انه كان واثقاً كل الوثوق من موقفه ، وهل يعني ان علامات الاستفهام قد اختفت نهائياً ؟ كلا . والدليل على ذلك ان رسالة صغيرة جاءت الى تحرير « الازمنة الحديثة » كانت كافية لتبعث علامات الاستفهام من جديد . ترى هل بإمكان محرري « الازمنة الحديثة » ان يرفضوا النظام الستاليني دون ان يدينوا في الوقت نفسه الماركسية ؟ لقد تلقى سارتر من الكاتب بلوخ – ميشيل رسالة استنكار لافتتاحية « الازمنة الحديثة » تقول : « كيف لا تفهمون ان الاقتصاد السوفياتي بحاجة الى يد عاملة طيعة وانه يجند، كل عام ، ملايين من الشغيلة الناقصي التغذية ، المرهقين بالاستغلال الماضي ؟ » . لقد كانت الفكرة الأولى التي خطرت لسارتر بعد قراءته هذه الرسالة : إذا كان بلوخ – ميشيل على حق ، فهذا معناه ان ماركس قد القى بنا من همجية الى همجية اخرى . لكن هل كان بمقدوره ان يتناسى صعوبات التصنيع في مرحلة التراكم الاشتراكي ، والتطويق الاستعماري للاتحاد السوفياتي ، ومقاومة الفلاحين ،

وضرورات تأمين التموين، والمشكلات الديموغرافية ، والريبة، والإرهاب ، والدكتاتورية البوليسية ؟ وماذا يمكنه ان يقول لو ثبت له ان نظام المعسكرات ضرورة تفرضها البنية التحتية؟ ان سارتر ، باعترافه ، لم يكن يعرف الاتحاد السوفياتي ولا نظام الإنتاج آنذاك معرفة كافية ليمكنه الحكم معها بجواب قاطع . ولهذا لم يكن امام « الازمنة الحديثة » من امكانية سوى ان تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، دون ان يشعر احد المعسكرين الجبارين بضرباتها. ولقد كان سارتر مرغماً على اختيار هذا الحل البائس ، لكنه كان قلقاً . انه يعرف انه يرواح مكانه منذ خمسة أعوام . وكل ما هنالك ان الـ « نعم » تحولت الى « لا » . لقد كان في عام ١٩٤٥ يقول : « ايها السادة ، نحن اصدقاء الجميع وبالدرجة الأولى اصدقاء عزيزنا الحزب الشيوعي». وفي عام ١٩٥٠ يقول : « نحن اعداء الجميع ، وامتياز الحزب الشيوعي الوحيد انه ما يزال له كل الحق في صرامتنا » . ولقد كان يشعر ان هذه « الموضوعية المحلقة فوق الجميع » لن تقوده الى اي مكان، وانها لا تفعل شيئاً سوى ان تؤخر اختياره بعض الزمن ، ويشعر في الوقت نفسه ان موقف المجلة السياسي مهدد بأن يتحول الى مجرد موقف اخلاقي .

ولم يتجل هذا الموقف الاخلاقي المجرد للمجلة كما تجلى صيف عام ١٩٥٠ ، عندما اندلعت حرب كوريا . فلقد حدث أولاً انقسام في الرأي بين ميرلو بونتي وبين سارتر . كان رأي الاول ان المجلة ينبغي ان تصمت لأن القوة هي التي باتت تقرر وحدها،

فما الفـــائدة من الكلام إن لم تكن لها أذنان لتسمع بها؟ ولأي المعسكرين تنتصر المجلة ، وكلاهما لا يخوض الحرب من اجل قضية لإنسان والاشتراكيـة ؟ لكن سارتر كان يرد على ميرلو بونتي : كيف تريد ان تكم فم النقـد في الوقت الذي بدأت فيه المدافع تسعل ؟ لكن إذا لم تصمت المجلة ، فأي موقف تختار ؟ ولقد اختار سارتر بسرعة لأنه ، باعترافـه ، لم يكن ينظر الى البعيد ، الى إبعـاد الحرب الدوليـــة ، بل اكتفى برؤية دم الكوريين يسيل ليتحسر عليه وليضع اللوم على اتفاقيات يالطـا التي شطرت كوريا الى شطرين. ولقد كان في موقفه هذا مخطئاً ، باعترافه . وكان هذا الخطأ ناتجـاً عن الجهل ، لكنه كان مبرراً أيضاً : فمن أنى له المعرفـة وقتئذ ؟ من كان سيكشف له أن الولايات المتحدة يتأكلهـــا سرطـان الحرب ؟ ومن أنى له أن يعرف ، في آب ١٩٥٠ ، خطـة الجنرال مـــاك آرثر ونيته في الاستفادة من الحرب ليقضي على الحكم الاشتراكي في الصـــين ؟ وهل كان يعرف بوجود سينغمان ري، الأمير الاقطاعي ، وطمع الجنوب الكوري الزراعي بصناعــــة الشمال الكوري ؟ إن الصحافة الشيوعية لم تكن تتكلم عن شيء من هذا آنذاك : لأنها لم تكن تعرف أكثر مما تعرف « الأزمنة الحديثة » ولأنها كانت تكتفي ، بحكم تقاليدها ، بإدانة جريمـة القوى الامبريالية ، أي الأميركان دون أن تذهب الى ما هو أبعد من ذلك . ثم انهـــا كانت تكذب في النقطة الوحيدة التالية : فتقول إن الجنوبيين هم أول من تخطى خط التقسيم ، في حـــين أن الشماليين هم الذين

فعلوا ذلك في الواقع . إن الحقيقة قـــد باتت معروفة اليوم ، ومعروف أن عسكريي الولايات المتحـــدة ، المتواطئين مع إقطاعيين « سيؤول » ، قد نصبوا للشيوعيين فخاً : كانت هناك حوادث حدود يوميـة ، فاستغلتها قوات الجنوب لتقوم بعرض عضلات ، فوقع الشمال في الفخ ووجه الضربة التي أراد بها أن يتفادى الضربة المتوقعـــة . واضطر الاتحاد السوفياتي الى دعم الشماليين خوفاً من ضياع نفوذه في آسيا ، في حين أن الصين الفتية دخلت المعركة جدياً لأنها كانت تعلم أنها موضع طمع الاميركان ، ولأن إخاءهـــا الثوري ، ومصالحها الدائمة ، وسياستها الدولية كانت تتطلب منها أن تتدخل . لكن المعلومات التي كان يملكها سارتر ومحررو « الأزمنة الحديثة » في صيف عـــام ١٩٥٠ ، لم تكن تسمح لهم بتوزيـع الأدوار على حقيقتهـــا . وإذا كان ميرلو بونتي قد آمن بذنب ستالين ، إلا أن سارتر لم يؤمن بأي شيء ، بل كان يسبح في اللايقين . ولعل هذا مـــا أنقذه . فظل محافظاً على ما يمكن أن نسميه بتفاؤله ، ولم يخطر له ، كما خطر لميرلو بونتي ، ان العصر بات يعيش في ظلام دامس وان الستار قد رفع عن رؤيا يوحنا .

ونتيجة لهذا اللايقين الذي سبحت فيه « الأزمنة الحديثة » في صيف عام ١٩٥٠ ، كان طبيعياً أن تطلق السياسة . لكنهـا لم تكن تستطيـع أن تستمر في سياسة عدم الكتابة في السياسة . فقد أخذ قراؤها يحتجون ثم ينفضون عنها . وكان الانقاذ عندما جاءت الى المجلة مقالات سياسية بعث بها قراء ظنوا أنهم يتبعون

الخط الذي رسمته المجلة قبـــل ستة أعوام . وهكذا اكتشف سارتر وميرلو بونتي أن المجلة قد اكتسبت نوعــاً من الاستقلال ، وانها صارت تحرر نفسها بنفسها ، وانها باتت تقودهما بقدر مـا كانا يقودانها . وبكلمة واحدة ، أصبحت المجلة أشبه بسفينة لا ربان لهـــا ، تجند من تلقاء نفسها ضباطاً حالوا دونها ودون الهلاك .

واستمرت هـــذه المرحلة عامين ، من ١٩٥٠ الى ١٩٥٢ ، وكان العالم في هذه الفترة قد سيطر عليه عصاب الحرب . وكان الجميع ، في الغرب ، يتساءلون : ماذا سيحدث لأوروبا بعد أن يحتلهـــا الروس بكاملها ؟ فقد كان الخبراء في مجلس النواب يؤكدون أن الروس لن يترددوا في الإقدام على هـــذا العمل . ويعترف سارتر أنـــه كان أقل جنوناً : فهو لم يكن يؤمن برؤيا يوحنا ، لا لشيء إلا لأنه أقل خيالاً من غيره ، على حد تعبيره .

وفي عام ١٩٥٣ ، كانت موجة معاداة الشيوعية قـد بلغت ذروتها في « العـالم الحر » . ومع هـــذه الحملة ، تقطعت آخر الروابط التي كانت تربط سارتر بقيم البورجوازيـــة ، وتحولت رؤيته للعـــالم : إن عداء الشيوعية « كلبنة » ، هذا رأيه ولن يتحول عنه بعد اليوم أبداً ، مهما بدا في عيون الآخرين ساذجاً . لقد وصل بعد عشر سنوات من الاجترار الى نقطة القطيعة . إنه حاقد بعد اليوم على البورجوازية حقداً لن ينتهي إلا بانتهائه هو ، وهذا الحقد هـو باسم المبادىء التي لقنته إياها ، باسم الحريـــة والمساواة والإخاء .

وأحس بحاجة الى الكتابة ليل نهار ، مدفوعاً بشعور الاختناق . وكتب مقالته « الشيوعيون والسلم » ، تلك المقالة التي أثارت جدلاً كثيراً ، والتي كانت نقطة الطلاق بينه وبين ميرلو بونتي . وبالفعل هاجم ميرلو بونتي سارتر في كتابه « مغامرات الديالكتيك » ، ولم يدافع سارتر عن نفسه ، بل تولت ذلك سيمون دي بوفوار في كتابها « امتيازات » . وكانت خلاصة المقال هي أن الاتحاد السوفياتي يريد السلام ، وهو بحاجة اليه ، واخطار الحرب مصدرها الغرب وحده . ورغم ان اليسار الفرنسي غير الشيوعي كان يطالب بفضح الشيوعيين بنفس القوة التي ينبغي ان تفضح بها سياسة الحكومة الفرنسية الرجعية ، إلا ان سارتر لم يهاجم الشيوعيين في مقاله ، بل اعلن انه سيكون رفيق دربهم . لكنه كان في الوقت نفسه حريصاً على ان يثبت ان اتفاقه مع الشيوعيين لم يؤثر بشيء على حريته في الحكم والنقد .

ولقد ظل سارتر متمسكاً بموقفه هذا ، كرفيق درب ، حتى عام ١٩٥٦ ، يوم انعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي وبدأت حملة اللاستالينية .

ثـورة المجـر

يمكننا ان نحدد تطور مـوقف سارتر من الشيوعيين بثلاث مراحل كبرى عريضة : المرحلة الأولى : من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى حرب كوريا ، وكان فيها ينادي بوحـدة العمل مع الشيوعيين ، مع التحفظ الكبير ، دون ان يكون قـد ادرك جميع أبعاد الصراع الطبقي . والمرحلة الثانية : من حرب كوريا حتى ثورة المجر ، وكان يقول فيهـا إنه رفيق درب للشيوعيين ، وانه وإن كان غير شيوعي إلا انه يرفض بشدة معاداة الشيوعية، لأن أي عداء لها هو موقف بورجوازي . والمرحلة الثالثة : هي التي تتلو ثورة المجر ، وفيها اكتشف سارتر ان الحزب الشيوعي ، وإن كان حزب البروليتاريا ، إلا انـه ليس حتماً حزب ثورة البروليتاريا .

لقد تكلم سارتر بعنف بعد ثورة المجر . ولم يكن هو وحده الذي تكلم بعنف . بل فعل ذلـك ايضاً كثير من الماركسيين

والشيوعيين . وظلت « الازمنة الحديثة » تنشر في عـدة اعداد متوالية مقالات لماركسيين وشيوعيين سابقين قرروا اخيراً ان لا بد من عملية النقد الذاتي .

ولقد رأينا في فصل سابق ان « الازمنة الحديثة » خصصت مجلداً ضخماً لثورة المجر وان سارتر ساهم في هذا المجلد بدراسته عن « شبح ستالين » . فما هـو رأي سارتر اذن بهـذه الثورة ، وبالتدخل السوفياتي العسكري لقمعها ، وما رأيه اخيراً بالحزب الشيوعي نفسه بعد فضيحة المجر ؟

إن ضربة بودابست في الواقع لا تنفصل عن ضربة السويس . بل لعل الجنرالات الفرنسيين والانكليز استغلوا ورطة الاتحـاد السوفياتي في بودابست ، ليقومـوا بضربتهم في السويس . لكن ليس هـــذا ما يهمنا هنا . انما الذي يهمنا ان الناس انقسموا الى ثلاث فئات: فمنهم من استنكر ضربة السويس وحدها ، كما فعل الشيوعيون ، ومنهم من استنكر ضربة بودابست وحدهـا ، كما فعل اليمين ، ومنهم من استنكر الضربتين معـــاً ، ومن بينهم سارتر .

ان احدى الضربتين لا تبرر الاخرى . هذا هو رأي سارتر. وهو يضيف : ان الحقيقة المؤلمـــة هي ان اليساري الفرنسي لا يستطيع بعد اليوم ان يحدد نفسه إلا برفض مزدوج. لكن المهم الا يتحول هـذا الرفض الى مجرد موقف اخـــلاقي ليس له أي صفة سياسية . ان الموقف الوحيد الذي يمكن ان يتخذ فعلاً هو موقف سياسي . والسياسة هي أولاً وآخراً عمل مشترك بين

بعض البشر ضد البعض الآخر . لكن هذا لا يعني ان أي حزب سياسي يستطيع ان يحكم على أي حزب سياسي آخر . ان ثمة حركة واحدة تقود ، منذ أكثر من قرن وتحت اشكال تتبدل مع سير التاريخ ، الجماهير المستغَلة ، وتطالب من اجلهم ومن أجل الجميع بإمكانية البشر ان يصبحوا بشراً حقاً . ثمة حركة واحدة تكشف المجتمع في واقعه بالذات وتحدد البورجوازية بأنها طبقة مستغِلة ، في حين ان سائر الحركات الأخرى تجعل منها طبقة عالمية . ثمة حركة واحدة تستطيع ان تفهم نفسها وان تفهم الحركات الأخرى : انها الحركة الاشتراكية بمجموعها . انها الحكم المطلق على جميع الحكام لأن المستغَلين يعون الاستغلال والصراع الطبقي على انه واقعهم ، وعلى انه حقيقة المجتمعات البورجوازية : انها ترى المعنى العميق للمناورات والعمليات لأنها تربطها ببنى التاريخ الأساسية ، لأنها حركة الانسان وهو يصنع ذاته . اما الحركات الاخرى فهي ليست عاجزة عن فهم الحركة المذكورة فحسب ، بل عاجزة ايضاً حتى عن فهم نفسها ، لأنها لا تريد أصلاً ان تعرف حقيقة ما تفعله . وعلى هذا ، اذا ما اردنا ان نحكم على مشروع سياسي ، فإن الاشتراكية هي عمادنا المطلق : فهي تفهم السيد « فلان » الذي لا يفهم نفسه . وبدهي ان هذه الحركة ليس لها مبادىء مجردة او برنامج قبلي مسبق : انها في حالة تحول مستمر ، كالإنتاج نفسه ، كالتاريخ ذاته . ولهذا لا يمكننا ايضاً ان نحكم باسم مرحلة من مراحلها ، انما علينا ان نحكم باسم كليتها الراهنة .

إننا لا نستطيع ان نحكم باسم الحزب الاشتراكي وحـــده ، وإلا اضطررنا الى ان نهضم إمـــا ضربة السويس وإمـــا ضربة بودابست . لكن لا نستطيع ايضاً ان نحـــكم باسم اشتراكية خيالية لا وجود لها إلا في دماغنا ، ندعي انها تتجاوز الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي على حـــد سواء . فما هي اذن الاشتراكية التي يريد سارتر ان يحكم باسمها ؟

انه يلاحظ أولاً ان المرء لا يحتاج الى أي نوع من التحفظ إذا اراد ان يدين غي موليه ، رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي ، ومغامرته الفاشلة في السويس . فالسيد موليه لم يزعم قط انــه يخدم قضية الاشتراكية . إن من السهل الحكم على سياسته ، أي على الطلاق بين قراراته وبين الواقع الحي للجماهيرالتي يمثلها والتي صوتت له في الانتخابات . فهو ، بكلمة واحـدة ، قـــد خان حزبه . لقد ارسل الشباب الفرنسي الى الجزائر ليقاتل ويدافع عـــن مصالح بورجو واضرابـــه من الاقطاعيين والرأسماليين الاستعماريين . ثم ارسله ايضاً الى مصر ليدافع عن مصالح شركة قناة السويس الرأسمالية الكبيرة .

لكن الحكم على ضربـــة بودابست أمر اصعب بكثير . فالشيوعية ، رغم كل شيء ، هي الحركة الوحيدة التي ما تزال تحمل في ذاتها فرص الاشتراكية . وحكومة الاتحاد السوفياتي تدعي انها تدخلت في المجر لتنقذ اسس الاشتراكيـــة . وإذا كان العنف مقبولاً عندما تقتضي القضية ذلك ، فكيف يمكن رفضه عندما يكون الهدف منه حماية المنجزات الاشتراكية من عبث

القوى الفاشية ؟

هذه هي الحجة التي انتشرت في بعض الاوساط التقدمية والشيوعية . وقد قيل عنها إنها حجة ماركسية . لكن سارتر يقول انها أقدم من ماركس ، وأنها تتلخص على النحو التالي : « ليكن ما ينبغي ان يكون » . غير ان هذا لا يعني ان سارتر ينكر ان جزءاً من الدم المسفوح تقع مسؤوليته على الحكومات الغربية ، وبخاصة حكومة ترومان . لقد كانت إذاعات كثيرة ممولة من الغرب تدعو المجريين الى الثورة مع ان الغرب لم يكن يملك لا النية ولا الوسيلة لدعمهم . لكن السؤال الذي يظل أساسياً هو : هل ثمة من يستطيع ان يثبت ان الاشتراكية كانت ستضيع لولا دبابات جوكوف ؟ ثم هل ثمة من يجهل ان الاتحاد السوفياتي ، بتدخله ، قد حدد اشتراكيته الخاصة كما حدد الاشتراكية التي يريد ان يقيمها في المجر ؟

ان البعض يصر على ان التدخل السوفياتي كان محتماً . لنقبل بذلك مؤقتاً . إن هذا يعني ان الحكومة المجرية قد اعترفت بعجزها : فهي ، بعد اثنتي عشرة سنة من السلطة المطلقة ، فقدت السيطرة على الجماهير ولم تعد تمثلها . ان عزلتها ، والحقد الذي تواجه به حتى في صفوف الشيوعيين ، هما السبب الحقيقي لاستنجادها بالسوفييتيين . وعلى هذا يكون التدخل السوفياتي الاجنبي نتيجة منطقية لسياسة مجردة وخاطئة أدت الى كارثة اقتصادية وولدت من تلقاء نفسها ثورة مضادة . وفي مثل هذه الحال ، لا يمكن الحكم على الحلقة الأخيرة فقط من السلسلة . ان

التصنيع المبالغ فيه والاسراع الزائد في تحويل الملكية الى ملكية جماعية كان يحمل في ذاته منذ اليوم الاول مذابح بودابست. وإذا كان الستالينيون يحرموننا من إدانة هذه المذابح في يومها، فإننا سندينها بدءاً من عام ١٩٤٩. فماذا يهم ما تعتقد حكومة ما انها تفعله؟ انما المهم هو ما تفعله. وماذا كانت تفعل الحكومة المجرية؟ لقد كانت تدفع بشكل منهجي شعباً بكامله الى اليأس. بالطبع، لقد كان للدعاية الغربية الرجعية أثرها، لكن الدعاية وحدها لاتكفي ليلقي الناس بأنفسهم تحت المصفحات، فالمرء لا يركض الى الموت إلا بعد ان تصبح الحياة في نظره احتضاراً طويلاً مستمراً. ولقد حول المسؤولون الستالينيون حياة العمال المجريين الى احتضار مستمر.

لقد حاول بعض المثقفين الشيوعيين ان ينكروا وجود البروليتاريا المجرية. ووصفوا مدينة بودابست بأنها مدينة بورجوازية فيها تسعمئة الف بورجوازي صغير قابعين في جحورهم. لكن هؤلاء نسوا على ما يبدو ان مجموع سكان بودابست لا يتجاوز مليوناً وسبعمئة الف نسمة، بما فيهم الشيوخ والنساء والأطفال. وحاول شيوعيون آخرون، اكثر ذكاء، مع اعترافهم بوجود البروليتاريا المجرية وباشتراكها في التمرد، حاولوا ان يلجؤوا الى هذا المنطق: «الطبقة العاملة؟ حسناً. لكن هل الطبقة العاملة معصومة عن الخطأ؟ ألم يكن هناك عمال وراء موسوليني وهتلر؟». بالطبع ان الطبقة العاملة ليست معصومة عن الخطأ، لكن ما ينبغي ان نرفضه هو منطق الشيوعيين الذين

يتكلمون عن عدم عصمة الطبقة العاملة حين يريدون ان يعطوا الحق لمكتبهم السياسي في جميع الاحوال . وهناك أخيراً منطق شيوعي ثالث يقول : « لقد ارتكبت أخطاء ، ولكن ... » . ان « لكن » هذه هي التي نرفضها . لقد ارتكبت أخطاء . هذا كل شيء. انما هنا ينبغي ان نتوقف. انما هنا ينبغي انْنستخلص النتائج قبل ان ننتقل الى « لكن » تلك .

ان الشيوعيين الفرنسيين الذين وافقوا على ضرورة التدخل الروسي ، أعلنوا موقفهم هذا بسرعة ودون أي تردد ، ودون أي معلومات ايضاً . فليست المجر هي التي تهمهم : بل الاتحاد السوفياتي . وموقفهم ذاك نابع من فعل ايمان : « ما دام الجيش الأحمر لا يستطيع ان يطلق النار على عمال دون ان تكون هناك ضرورة مطلقة،فهذا معناه انمذبحة بودابست كانت ضرورية». ان بنية الاتحاد السوفياتي الاشتراكية هي التي تقرر ، في نظرهم، طبيعة علاقاته مع البلدان الاشتراكية التي تحيط به ، وهذه العلاقات لا يمكنان تكون إلا اشتراكية . والحال ان الأحزاب الشيوعية في العالم أجمع ، وحركة أنصار السلم ، والسلطات السوفياتية ، قد أدانت مئة مرة مبدأ التدخل العسكري ونادت بحق الشعوب في تقرير مصائرها. وعلى هذا فإن الجيش السوفياتي لا يمكن ان يكون قد تدخل حقاً،في نظر أصحاب هذا المنطق، إلا ضد عملاء الأجنبي ولإنقاذ الشغيلة المجريين ومعهم الشيوعيون المناضلون من المذبحة التي أعدها لهم الفاشيون والتروتسكيون الخونة . والقنابل التي انهالت على بودابست كانت موجهة باتجاه

التطور التاريخي ، فكانت تختار الفاشيين ولا تصيب غيرهم .

لكن الحرج الذي يواجهه أصحاب هـذا المنطق هو ان هناك ...٢٥٠، عاملاً قد قتلوا أثناء التمرد . وحتى المسؤولون الشيوعيون اعترفوا بعد مضي شهور قليـلة بأن القضية لم تكن مجرد انقلاب فاشي . ان التروتسكيين وحدهم يزعمون ان التمرد كان كله ذا طابع تقدمي . وبين كون الحركة فاشية مئة بالمئـة وبين كونها تقدمية مئة بالمئة تقف الحقيقة . لكن لاكتشاف هذه الحقيقة فلا بد من تحليل مـاركسي للموقف . وبالفعل ، ان الشيوعيـين من المثقفين الفرنسيين يصيحون : « لنكـن ماركسيين ! » . لكن ماركسيتهم هذه لا تتعدى ان تكون مجرد بضع تعميات مبتذلة عن مجر ما قبل الحرب وعن تطورها بعد عام ١٩٤٥ ، ثم تراوح في مكانهـا . ان الماركسيين الكسالى لا يستطيعون ان يتصوروا تمرداً شعبياً في بلد اشتراكي . فمـا دامت الحرب الباردة شكلاً من أشكال الصراع الطبقي، فكل ما يمكن ان يخدم الكتلة الغربية هو بالضرورة ثورة مضادة. والحال ان التمرد المجري — مهما كانت أهدافه وعوامله — يلعب موضوعياً لعبة الامبريالية الاستعمارية . اذن فهو ثورة مضـادة . اذن فلقد أساؤوا تقدير الصراع الطبقي ، أولئـك المجريون الذين أبغضوا استبداد راكوزي والراكوزيين . ولقـد أساؤوا تقدير الصراع الطبقي ، أولئك الشيوعيون القوميون الذين كان كل مبتغاهم ان يقيموا بين المجر وبين الاتحاد السوفياتي علاقات اشتراكية حقيقية . والجوع ؟ وتعب الشغيلة المزمن ؟ ومـا سبباه من انخفـاض في

الانتاجيـة ومن عثرات أمـام التخطيط الاشتراكي ؟ أم العمال الذين أساؤوا تقدير الصراع الطبقي ، ام راكوزي نفسه وسائر المسؤولين المجريين الستالينيين ؟

ان المثقفين الشيوعيـين لا يفعلون شيئاً سوى الكلام عن الامبريالية العالمية التي « نظمت أحداث المجر » ! لكن مـا هي هذه الامبريالية ؟ وكيف نظمت الثورة ؟ كيف زودت عملاءها بالسلاح ؟ كيف جعلت جميـع عمال بودابست يثورون ؟ ان الماركسيين لا يجيبون على شيء من هذه الأسئلة . انما يكتفون بأن يرددوا كالببغاءات : « الامبرياليـة العالميـة ! » . ألم يأن الأوان ليدركوا أن عليهم ان يجمعوا الوقائع قبل أن يفسروها، وان المنهج الماركسي يسمح بفهم التجربة لا بحذفها ؟

ان ماركس نفسه ليهزأ من أولئك المثقفين الدوغمائيين الذين حولوا الصراع الطبقي الى مثال افلاطوني . ان « الامبرياليـة العالمية » لا تكفي وحدها لتفجر ثورة في صفوف العمال بالذات داخل نظـام اشتراكي . ان التمرد المجري لا يمكن ان يفسر إلا بالتناقضات الواقعيـة التي كانت موجودة في صلب النظـام الاشتراكي . فما هي هذه التناقضات ؟ .

ان الحقيقة التي لا نقاش فيهـا هي ان المطالب كانت منصبة بشكل أساسي حتى ٢٣ تشرين الأول ، اي حتى اللحظـة التي تدخل فيها الجيش السوفياتي لأول مرة ، على الديموقراطية . اما النزعة القومية فكانت مـا تزال حبيسة القلوب . لقـد هيجها راكوزي بأعماله الخرقاء (ألغى العيد القومي للمجر ، وهـدم

كنيسة أثريـــة في بودابست ليقيم مكانهـــا تمثالاً كئيباً ضخماً لستالين) . ومن حسن الحظ ان المطالب الاجتماعية سمحت لهذه النزعة القوميـــة ان تعبر عن نفسها دون ان تفضح نفسها . لكن هل كان من الممكن ان تتحقق المطالب الاجتماعية ، اي ان تشق المجر طريقها الخاص الى الاشتراكيـــة دون ان تحصل أولاً على استقلالها التام ؟ وهكذا كانت المطالب الاجتماعية تنتهي بالمطلب القومي : كيف يمكن رفع مستوى الحياة دون القيام بتوزيـع جديد للتوظيفات ، أي دون أن يتم وضع خطط الإنتاج من قبل خبراء مجريـــين لا سوفياتيين ؟ وكيف يمكن ان تعود للنقابات وظيفتها الحقيقيـة اذا كانت نوعية الانتاج تحددهـــا الطلبات الروسية ؟ وهكذا كان يبدو اذن ان انقاذ الشيوعية في المجر لا يمكن أن يتم اذا لم يعد النظر في العلاقات بين المجريين والروس .

لقد كانت وحدة المطالبة بالديموقراطية تخفي وراءها اتجاهات متنافرة . فهناك المعارضة الشيوعية التي كانت تريد ان تعيـــد الاتصال بالجماهير ، والحيـــاة الى الحزب ، واللينينية الى العقيدة التي شوهها الراكوزيون . وبالمقـــابل كانت البورجوازية الصغيرة المحافظة تطالب بالديموقراطيـــة لتصل عن طريقها الى الاستقلال القومي . كما أن الاشتراكيين – الديموقراطيـــين المضطهدين لم يكونوا ليفهموا الديموقراطية إلا أنها عودة الى تعدد الأحزاب . وأخيراً كان الكتاب والمثقفون يمارسون نقـــداً سلبياً خالصاً ويطالبون بإنهاء نظام راكوزي .

وجاءت احداث بولونيـــا ، وعودة غومولكا الى الحكم ،

لتحدد الطريق الواجب اتباعه. ان على الجميع ، قبل ان يقوموا بأي خطوة ، أن يتحدوا وان يرفعوا الى الحكم شيوعيين قوميين يستطيعون المفاوضة مع الاتحاد السوفياتي . كانت البلاد بكاملها تنادي اسم ناجي . وكان ناجي الشخص الوحيد القادر على تأمين الديموقراطية دون ان تنهار اسس النظام بالذات .

لكن في ليلة ٢٣ - ٢٤ تشرين الأول ، ليلة العدوان السوفياتي ، تراجع مطلب الديموقراطية لتنفجر النزعة القومية . لقد كان الجميع يسعون ، عشية التدخل ، للتفاهم حول برنامج سياسي واجتماعي . لكن التدخل الأجنبي وثق الروابط بينهم ، فشكلوا « جبهة متحدة » لمقاومة المعتدي . وما لا يستطيع أحد ان ينكره هو ان العمال كانوا يشكلون غالبية المقاومين . ولقد عمد ناجي فوراً الى تسليح العمال عن طريق النقابات حتى يمنع أي محاولة لاستغلال التمرد من قبل العناصر الرجعية وتحويله الى ثورة مضادة . ولقد اعترف المارشال جوكوف نفسه في ٣٠ تشرين الأول : « انني أرى أن تسليم الأسلحة للعمال يثبت ان الحكومة المجرية الجديدة تستند فعلياً الى الطبقة العاملة » . لكن المؤسف بالنسبة لجوكوف هو أن العمال استخدموا هذه الأسلحة للدفاع عن الشعب المجري ضد الجنود السوفياتيين . ولعله شيء له دلالته ان تكون أشد المعارك وأطولها قد دارت في الأحياء العمالية الخالصة . فهل يمكن ان نصدق منطق البعض وان نقول معهم ان الفاشية نشرت وباءها في مثل هذه الأحياء العمالية الخالصة ؟ .

ان العمال الذين تمردوا ، حملوا السلاح ليطيحوا بنظام اضطهادي استبدادي قاد البلاد الى الخراب ، لكنهم لم يحملوه ليعيدوا النظر في تشريك الصناعة . لقد قبلوا بأن يضحوا كثيراً من أجل المجر الاشتراكية. ثم تمردوا حين رأوا ان هذه التضحيات اللامجدية لن تمنع لا زوال الأمة ولا تصفية الأسس الاشتراكية . انهم لم يتمردوا ليعيدوا المصانع الى الرأسماليين — وأي جنون يدفعهم الى مثل هذا العمل؟ — بل ليتولوا ادارة الصناعة بأنفسهم عن طريق المجالس العمالية . وبالفعل ، إن هذه المجالس سرعان ما تشكلت وبدأت تمارس عملها غداة التمرد بالذات .

إن فرصَ شيوعيةٍ قومية وديموقراطية كانت ما تزال قائمة يوم ٢٣ تشرين الأول ، رغم جميع الجرائم التي ارتكبها الحزب الشيوعي . وأكبر دليل على ذلك انه قبل ساعات من تمرد يوم ٢٣ تشرين الأول ، كان جميع سكان بودابست في الشوارع ، يتظاهرون تأييداً لبولونيا وعودة غومولكا الى الحكم . وهذا معناه أنهم كانوا بحاجة هم أيضاً الى « غومولكا » مجري . وكان ناجي هو وحده المؤهل لهذا الدور . ولو استدعي ناجي الى الحكم يوم ٢٣ ، واتخذ تدابير فورية لرفع مستوى الحياة وتحطيم طوق الإرهاب ، كما فعل غومولكا ، لكان أمكن إنقاذ كل شيء ، والحزب الشيوعي نفسه أولاً . لكن « جيروي » هو الذي كان يحكم . وباستدعائه الروس ، أساء الى الحزب الشيوعي إساءة بالغة . فقد أصبح هذا الحزب ، في نظر الجماهير ، حزب الأجنبي . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من أعضائه انضم الى

صفوف المتمردين. وهكذا سقط شيوعيون مجريون تحت رصاص الشيوعيين الروس . ولم يكن هـــذا الجنون الإجرامي إلا الانتفاضة الأخيرة للستالينية المحتضرة . وحــين استدعي ناجي لتولي زمام الأمور ، كان الأوان قد فات ، وكان هو نفسه قــد فقد حظوته لدى الجماهير . ومع ذلك حاول ناجي أن يبذل ما في وسعه . لكنه ، ونظراً للعديد من التناقضات ، لم يستطع أن يرضي لا المتمردين ولا الروس .

إن بين الشيوعية وبين القومية تناقضاً في جميع الديموقراطيات الشعبية . والشيوعي القومي هو إنسان عاش هـــذا التناقض ، ويريد أن يتجاوزه دون أن يتخلى عن أي من الحدين . فالنزعة القومية كانت تقتضي أن تقوم العلاقــات بين الديموقراطيات الشعبية وبين الاتحـــاد السوفياتي على أساس من المساواة لا على أساس التبعيـــة ، لكن ستالينيـــة المسؤولين الشيوعيين في الديموقراطيات الشعبية حولت هذه العلاقات الى علاقات تبعية. وفي حين استطـاع غومولكا أن ينقذ بولونيـــا دون أن يقطع الصلات مع الاتحاد السوفياتي ، أدت حماقـة جيروي وغيره من المسؤولين المجريين الى قطع جميع الجسور ، ولم يعد ثمة مجـال ، بعد التدخل السوفياتي العسكري الأول ، إلا لعلاقة واحدة بين المجر وروسيا : القتال ، نظراً لانفجار الحزب الشيوعي المجري الذي كان الجسر الوحيد بين البلدين .

وعند انسحاب القوات الروسية في آخر شهر تشرين الأول، اجتاحت بودابست موجة من الفرح والحقـد والعنف . وقامت

الجماهير بسحل بعض الراكوزيين . لكن هل معنى ذلك أن موقف الاشتراكية والديموقراطية قد أصبح ميئوساً ؟ هذا ما قاله بعض المثقفين الشيوعيين ليبرروا التدخل السوفياتي الثاني في ٤ تشرين الثاني . لكن هل الأمر حقاً كذلك ؟ إن أعمال السحل القليلة كانت محتمة ، نظراً لانفجار السلطة ، ولعدم وجود جهاز منظم للجماهير . لكن ما من أحد يستطيع أن ينكر أن الهدوء كان قد عاد الى البلد ، والنظام استتب فيه ليلة ٣ تشرين الثاني ، ليلة التدخل السوفياتي الثاني . وكان المتمردون يعملون ، خوفاً من وقوع البلد في يد اليمين ، على تشكيل حزب جديد للثورة يضم العناصر البورجوازية الصغيرة بالاضافة الى الاشتراكيين – الديموقراطيين والشيوعيين . وكانت المفاوضات تجري على قدم وساق ، عندما قام الجيش السوفياتي بهجومه الثاني . ولقد كان تفوق الشيوعيين في حزب الثورة الجديد هذا محتماً ، نظراً لأنهم الوحيدون الذين يملكون تجربة عملية ، ومنهجاً ، ونظرية ، ولأنهم الوحيدون الذين يتمتعون بتكنيك دعاية وتحريض ، ولأنهم الوحيدون الذين يستطيعون أن ينظموا ويديروا ، ولأنهم الوحيدون الذين يستطيعون أن يعملوا من أجل أهداف بعيدة من خلال الأهداف الآنية . فكيف يزعم رجال الكرملين بعد ذلك أن دباباتهم دخلت بودابست لتواجه وضعاً ميئوساً منه ؟ إن السوفياتيين قد أساؤوا دوماً تقدير القوة الثورية للحركات العمالية والشعبية . ولهذا فإنهم لم يروا في تطورات المجر بعد انسحاب قواتهم الظاهري إلا انحرافاً نحو

اليمين ، مع أن جميع الفرص كانت متوافرة ليلعب الشيوعيون دورهم الحقيقي والإيجابي في بناء الاشتراكية ، من خلال تجمع حزب الثورة . وبدلاً من أن يثقوا بقدرة الشيوعيين المجريين على مواجهة الموقف ، فضلوا أن يعتبروا أن ثورة مضادة قد نجحت. إن البيروقراطية السوفياتية لا تحب العمال المسلحين ، وتفضل عليهم الجنود إذا كان الموقف يقتضي وجود سلاح . وهكذا راهنت ، في الرابع من تشرين الثاني ، ضد الثوريين الماركسيين لصالح الثورة المضادة . ولو أتيح للتمرد المجري إمكانية التطور ، لأدى بالفعل الى قيام دكتاتورية البروليتاريا الحقيقية . فلقد كانت الطبقة العاملة المجرية مسلحة ، وكان المتمردون يفكرون ، بعد رحيل القوات السوفياتية ، بتشكيل حرس قومي من الطلاب والعمال . ولقد كان هذا الحرس سيحمي الصناعة المؤممة. ولقد كان قادراً على ذلك . والدليل على ذلك أنه لم يخش المصفحات الروسية نفسها ، فهل كان سيخشى بضع شراذم من المهاجرين أو الرجعيين ؟ بالطبع كان لا بد من المجازفة . لكن أيهما أفضل لـ « بلد الاشتراكية الأول » : أن تقوم قواته بتهديم عاصمة وتدمير اقتصاد ، أم أن يثق ، ولو مجازفة ، بالبروليتاريا المجرية الواعية والمسلحة ؟

إن ما من أحد يحق له ان يقول إن احداث المجر جعلت تدخل الاتحاد السوفياتي محتماً. لا احد يحق له ذلك : وحتى الذين قرروا ذلك التدخل . إن ما جعل التدخل ممكناً ليس هو تطور الأحداث في المجر ، بل انتصار سياسة معينة في موسكو . هل

اراد السوفياتيون حقاً ان يدافعوا عن الاشتراكية في المجر ؟ اذا كانوا قد اعتقدوا ذلك ، فما أشد سذاجتهم ! ماذا ربحوا ؟ لا شيء . ماذا خسروا ؟ كل شيء . لقد أشعلوا في القلوب حقداً لن ينطفىء ولن يفيد غير الرجعية. وضحوا بالشيوعي القومي الوحيد الذي كان يملك الحل : ناجي. واثاروا في العالم كله موجة استنكار ظهر بعدها الجيش الأحمر ، جيش الشغيلة ، وكأنه عدو العمال المجريين . ولم تعد امامهم من وسيلة لإبقاء المجر في المعسكر الاشتراكي إلا العنف والاضطهاد . لقد كانوا رابحين على مختلف المستويات، قبل شهر تشرين الأول ١٩٥٦ المشؤوم : فقد خرجوا منتصرين من الحرب الباردة ، وتصالحوا مع تيتو ، واعادوا للمعسكر الاشتراكي وحدته ، ومدوا نفوذهم الى الهند والشرق الاوسط ، وفي الديموقراطيات البورجوازية الغربية ، بدأ هجومهم الثقافي يأتي بثماره ، وفقدت دعاية الخصم تأثيرها نتيجة للمؤتمر العشرين . اما بعد شهر تشرين الأول ، فقد أدانهم نهرو ، وسيطر القلق والتردد على الآسيويين والافريقيين ، وعادت صحيفتا « برافدا » و « بوربا » من تبادل الشتائم ، وعزلت الاحزاب الشيوعية في الغرب عزلة لا مثيل لها .

ماذا ربحوا ؟ لا شيء . ماذا خسروا ؟ كل شيء . لكن هكذا كانت حسابات السياسة الستالينية . ولقد دفعت هذه السياسة ثمن حسابها الخاطىء . لقد انتهت كسياسة وكمرحلة !

الحزب الشيوعي الفرنسي

لقـــد رأينا ان سارتر كان دوماً حريصاً على ألا يسقط في المذهب الاخلاقي . ان النقد الاخلاقي سهل لكنه لا يأتي بنتائج. لكن ألم يكن سارتر في نقده للاتحاد السوفياتي وادانته للتدخل العسكري في المجر ، اخلاقياً فحسب ؟ هذا صحيح فيما لو أنــه اراد أن يدين الاتحاد السوفياتي فقط . لكنه من خـلال ادانته للاتحاد السوفياتي ، لم يكن يتوجه الى الاتحاد السوفياتي بقدر ما كان يتوجه الى الحزب الشيوعي الفرنسي . انه يعترف بأنـــه وغيره من المثقفين لا يستطيعون شيئاً على الاتحاد السوفياتي . ان كل ما بمقدورهم ان يفعلوه هو ان يثقوا بشغيلة الاتحاد السوفياتي وبطلبته وبمن هم في قلب الجهاز ويعملون على تصفية الستالينية . لكن هناك حزباً شيوعياً في فرنسا . ويرأسه مكتب سياسي هنأ السوفياتيين على مبادرتهم الموفقة ! ان سارتر يتصور انـــه يستطيع شيئاً على هذا الحزب . ولمَ لا ؟ فهو يعرفه ، ولقد كان

رفيق دربه لمدة طويلة : فمن واجبه اذن ، وباستطاعته ان يؤثر عليه .

لكن أهذا هو الوقت المناسب ؟ أمن المناسب انتقاد وادانة الحزب الشيوعي ، حزب البروليتاريا ، في الوقت الذي يريد فيه اليمين ان يسحل اعضاءه ويحرق مكاتبه ؟ ألن يعني ذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الفاشية؟ ثم ان هنالك ايضاً حرب الجزائر اليمينية . فهل من المناسب فتح معركة مع اهم حزب يساري ؟

ان سارتر يقول إن التهديد بالفاشية أصبح شانتاجاً لا يمكن لإنسان صاحي الفكر ان يقع فيه . لقد كان اليمينيون يتهمون سارتر حين فضح ، مع غيره ، حرب الهند الصينية الاستعمارية، انه يطعن الجنود الفرنسيين في ظهورهم ، وها هو حين يدين العدوان السوفياتي يتهم بأنه يفتح الابواب للفاشية ويسلم خير المناضلين للقتلة . ان الطريقة لا تختلف : فمهما كانت الحقيقة ، فإن هناك دوماً شيئاً اهم ينبغي ان تفضله عليها : اخلاق المجتمع او الامة ، وحدة الحزب ، شرف الاسرة ، وبكلمة واحدة : المقدس !

ان تظاهرة فاشية تستطيع ان تسبب موت بعض الضحايا ، وتستطيع ان تحرق بعض المباني . لكنها لا تستطيع ان تزعزع حزباً شيوعياً حقيقياً . بل بالعكس . ان الحزب يعرف كيف يستفيد من مثل هذه المظاهرة : فتلتئم الصفوف وتنسى الخلافات. ولقد ادرك اليمين هذه الحقيقة بسرعة . فلقد رفضت

الجمعية الوطنية حل الحزب الشيوعي بنسبة في الاصوات مذهلة: ٤٥٣ صوتاً ضد ٨١ فقط ! وليس ذلك من قبيل الحب . بل كان النواب يقولون لبعضهم بعضاً : « لا نجعلن منهم شهداء ، فسوف يغرقون من أنفسهم » . اذن ؟ لمَ الصمت ؟ قد يقال إن حرب الجزائر ينبغي ان تكون الهم الأول ، المستمر لليسار . هذا صحيح . لكن كيف ندين الجنود الفرنسيين عندما يطلقون النار على الفلاحين العرب ، اذا لم ندن الجنود السوفياتيين عندما يطلقون النار على العمال المجريين ؟ لنتصور التصفير الذي سيقابل به خطيب شيوعي اذا ما قال للجماهير : « لا نستطيع المقارنة بين الشيئين ... انهما ليسا شيئاً واحداً » .

لهذا ، وإذا كان البعض حريصاً حقاً على الحزب الشيوعي ، فإن الطريقة الوحيدة ليستعيد هذا الحزب نفوذه هي مواجهة أكاذيبه بالحقيقة ، والاستمرار في ذلك الى ان يقتنع مناضلوه . لقد فضحت صحيفة مجرية ، قبل الثورة بشهور ، الترف الذي يتمتع به كبار الموظفين المجريون . ونقلت الصحافة الانكليزية الخبر . وغضب راكوزي : هل تسعى مواطنته الى الفضيحة ؟ هل تريد ان تغذي الدعاية الامبريالية ؟ وأجابت الصحيفة بكل بساطة : « الفضيحة انما هي ترفكم ، وليست ما اقوله عنه » . كذلك شأن الشيوعيين الفرنسيين . ان الفضيحة ليست ما يقال عنهم ، بل ما يقولونه هم . الفضيحة هي ما ينشر في جريدتهم « الاومانيته » . ان هذه الصحيفة تعلن كل يوم غبطتها عن الطريقة التي تم بها قمع الثورة المجرية ، غبطتها باغتيال

الديموقراطية البورجوازية . اننا لا نستطيع ان نعذر المسؤولين السوفياتيين حين يكذبون على شعبهم ، لكننا نستطيع أن نفهمهم : انهم في الورطة ، تمزقهم صراعاتهم الداخلية ، تشلهم عقيدتهم ، واقعون في فخ « تهدئة » تتطلب باستمرار عنفاً جديداً . لكن ما عذر الشيوعيين الفرنسيين ؟ انهم ، هم ، ليسوا في الورطة ! صحيح انهم اصدقاء حميمون للروس ، هذا مفهوم ، لكنهم ليسوا مسؤولين في النهاية الا امام جماهير بلدهم . ان لا شيء يمنعهم من قول الحقيقة ، بل ان كل شيء يرغمهم على قولها. يقيناً ليس المطوب منهم إدانة عنيفة للتدخل السوفياتي . إن كل المطلوب منهم ان ينيروا مناضليهم وناخبيهم ، ان يشرحوا ، ان يحسبوا حساب خط الرجعة ، ألا يلطخوا انفسهم بدم لم يسفكوه . اي ربح لهم في ان يلطخوا ايديهم بذلك الدم البعيد الذي كانوا يستطيعون ان يتبرأوا منه بكلمة واحدة ؟ لماذا يريدون ان يلوثوا معهم المناضلين الذين منحوهم ثقتهم ؟ هل كان ضرورياً حقاً أن يشتموا الضحايا قبل ان يعرفوا شيئاً ؟ أما كانوايستطيعونان يتجنبوا فضح فقر ماركسيتهم وفقر معارفهم الى حد أثاروا معه استنكار مؤرخي حزبهم انفسهم ؟ أما كانوا يستطيعون ان يفعلوا كالبولونيين ؟ لقد زعمت صحف موسكو ان الاجنبي وراء احداث بوزنان ، لكن الحكومة البولونية كذبت ذلك تكذيباً قاطعاً، ولم تستطع الصحف السوفياتية بعد ذلك إلا ان تصمت .

اجل . انه الوقت . وقت الكلام، والكلام بعنف . فعندما

تتكرر الأخطاء نفسها عشرات المرات ، فليس لهذا إلا معنى واحد : ان الحزب الشيوعي الفرنسي مريض . واذا لم تقتلع الجرثومة فوراً ، فإن القرح سيمتد وسيمتد . وآنذاك لن يفرح إلا اليمين . لكن رجال اليسار لن يفرحوا : فالحزب الشيوعي ، بما يناله من أصوات في الانتخابات ، يظل حزب فرنسا الاول . فإذا ما تعفن ، فالسلام على اليسار كله .

وبالفعل ، ماذا تستطيع التجمعات والفئات اليسارية غير الشيوعية ، كجماعة « الازمنة الحديثة » ان تفعل ؟ اذا اتحدت بدون الحزب الشيوعي ، فتكون قد حكمت على نفسها بالعجز . واذا اتحدت ضده ، تكون قد فتحت الباب على مصراعيه امام الفاشية . لا يبقى إذن الا حل واحد : وحدة العمل معه . لكن سياسة الحزب تجعل هذه الوحدة مستحيلة . ذلك ان الجبهة اليساريه المتحدة لا يمكن ان تتم دون اتفاق اكبر حزبين عماليين . ان جبهة شعبية تستطيع وحدها ان تنقذ البلاد ، وتستطيع وحدها ان تشفي فرنسا من السرطان الاستعماري ، وان تنتزع الاقتصاد من ايدي الرأسمالية المالتوسية ، وان ترفع مستوى حياة الجماهير . ان مثل هذه الجبهة تستطيع وحدها ان تضع اسس ديموقراطية اجتماعية ، وان تحقق السيادة القومية ، وان تحطم الكتلة الاطلسية ، وان تضع القوة الفرنسية في خدمة السلام العالمي . ان هذه السياسة ، الوحيدة التي تخدم مصالح فرنسا ، الوحيدة التي تستطيع ان تجنبها الانتفاضات الدموية والفاشية والحرب الأهلية ، لا يملك اي من الحزبين العماليين

القوة الـكافية وحده لانتهاجها ، بدون دعم الحزب الآخر . بل هناك ما هو أسوأ من ذلك : إن ايـاً من الحزبين لا يستطيع ان ينجو من الأزمة التي تنخره بدون مساعدة الآخر . لقـد اصبح الحزب الاشتراكي منذ نحو عشر سنين حزباً هرماً : ان العمر الوسطي لنوابه ولمناضليه لا يكف عن التقدم. والحزب الشيوعي يشيخ ايضاً : لكن بشكل أبطـــأ . ان نسبة المنتسبين اليه من الشباب تتضاءل ، والجهاز ، في القمـة ، لا يتجدد . واذا صاح احدهمـا « بودابست » ، صاح الآخر « السويس » ! وبذلـك يلطخون اليسار كله بالعار . إن على اليسار الفرنسي ان يعترف بأن حزبيه الكبيرين هما اكثر الاحزاب الاشتراكية احتقـــاراً من قبل الرأي العام العالمي اليساري : فقد طرد ، تحت موجـة من التصفير ، ممثل الحزب الاشتراكي من المؤتمر الدولي للأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية . كما ان مندوب الحزب الشيوعي استقبـل استقبالاً بارداً للغاية من قبـــل الأحزاب الشيوعية في بولونيا والمجر وايطاليا . إن هذا الجمود الذي يخيم على الحزبـــين الكبيرين هو انعكاس للجمود الذي كان يخيم على فرنسا بـكاملها عام ١٩٥٦ . ان الطبقة الرأسمالية الفرنسية طبقة مالتوسية ، لا تحب المجازفة ولا تجديـد الآلات . إن ما من شيء يتغير ، وما من شيء يتحرك . ومع ذلك فإن الأمل يظل معلقاً على هـــذا اليسار المنقسم الى نصفين : نصف يعزل نفسه أكثر فـــأكثر ، ونصف يلعب لعبة اليمين .

صحيح ان الحزب الشيوعي الفرنسي لا يكف هو نفسه عن

الدعوة الى جبهة شعبية، لكن دعوته تظل لفظية ما دامت سياسته تجعل هذه الجبهة مستحيلة . ان الحزب الشيوعي الفرنسي يريد ان يصل على الصعيد القومي الى الأهداف نفسها التي ينشدها الاتحاد السوفياتي على الصعيد الدولي . فالاتحاد السوفياتي يريد ان يساهم في الانفراج وان يخفف من حدة التوتر العالمي وان يوسع مناطق النفوذ الشيوعي عن طريق جبهة متحدة تقوم بين الاحزاب العمالية . وهذه السياسة انما تمليها على الاتحاد السوفياتي تطورات اللاستالينية وتصفيتها في المجتمع السوفياتي : انها تعبير عن « ذوبان الجليد » السوفياتي . لكن مثل هذه السياسة لن يكون لها من معنى في فرنسا اذا لم تترافق بعملية تصفية حقيقية للستالينية في الحزب ، اي عملية دمقرطة وتوسع فعلي . وبكلمة واحدة : إن ما ينبغي ان يتغير هو البنية الداخلية للحزب الشيوعي الفرنسي ، وعلاقته بالجماهير ، وارتباطه بسائر التجمعات السياسية والاجتماعية . لكن الحزب ، مع الأسف ، احتفظ ببنيته الستالينية ، وقيادته الستالينية : وعلى هذا فإن سياسة التوسع تتناقض مع ريبته العميقة وموقفه المتقوقع على نفسه . ان الحزب الشيوعي الفرنسي ليس اليوم الا حزباً جماهيرياً ولا حزب اطارات . انه يضم منذ زمن بعيد حوالي ١٨٠،٠٠٠ الف مناضل ، وبدلاً من ان يتوسع كالحزب الشيوعي الايطالي [١] ، فضل ان يضيق على نفسه ، وان يبقي الطبقة العاملة خارجاً عنه . لقد راهن المسؤولون الشيوعيون

---

١ - يبلغ عدد اعضاء الحزب الشيوعي الايطالي مليونين .

منذ عـــام ١٩٤٨ على الحرب ، نظراً لأن الحلف الأطلسي يشد خناقه اكثر فأكثر على اوروبا . ومـــا دامت الحرب واقعة حتماً في نظر هؤلاء المسؤولين ، ولما كانوا يرون ان الحكومة الفرنسية ستحل حتماً الحزب عشية الحرب ، لهذا فقد رغبو في ان يكونوا على استعداد بحيث لا يتضايقون من كثرة عددهم وينتقلون بخفة الى العمـــل السري . ان ستالينية الحزب في فرنسا واوروبا الوسطى ، وتقوقعه قد حدثا بين العروض الأولى لمارشال وبـين الإدانة الثانية لتيتو . ولقــد كانت نتيجة هـــذا التقوقع قطع الجسور بين الحزب والجماهير : وبذلك فقد وسيلة التـأثير عليها عندما حرم عليها وسيلة مراقبته . صحيـح ان خمسة ملايـــين ناخب يصوتون له كل أربـع سنين ، لكن هـــذه الأصوات لا يمكن ان تعتبر مراقبة : إن هؤلاء النـــاخبين يصوتون « للحزب الاكثر يسارية » ، وهذا لا يعني انهم يوافقون على سياسته كلها ، فالتصويت حـل وسط شئنا ام أبينـــا . ونتيجة هذا التحول المزدوج هو انقـلاب الحزب الى حزب برلمـــاني . انه لا يحقق انتصاراته في المعمل او في الشارع : بـــل في الغرفة السرية يوم الانتخابات . ان قوته تقتصر شيئاً فشيئاً على عدد نوابه ، وعمله ليس له من فعالية إلا على الصعيد البرلماني . وحتى في هذا المجال ، فإن مناورات الأحزاب الاخرى ، وبخاصة خيانة الاشتراكيين، تجرده من سلاحه : فمهما كانت الأغلبية البرلمـــانية، فسرعان ما تتشكل اغلبية تفوقها لا لشيء إلا لتجمده . مـــاذا حقق حتى الآن ؟ لقــد اعيد تسليح المانيـــا ، واشعلت حرب الجزائر ،

اوارتفعت الاسعار . لقد استطاع حزب العمال ان يقيم انـكلترا ويقعدها ضد العدوان الانـكليزي – الفرنسي على مصر . فمـاذا فعل النواب الشيوعيون المئة والخمسون في فرنسا ؟ وماذا فعـل الحزب بأصوات ناخبيه الخمسة ملايين ؟ كل ما فعله هو انه أرغم الفئات الاخرى ان تأخذ وجوده بعين الاعتبار عندما تعمل على تشكيل غالبيات بهدف اقرار مشروع معين .

والنتيجة الثانية لأهميته الظاهرية وعزلته السرية هي تدعيم دكتاتورية مكتبه السياسي : فلو انفتح الحزب على الجمـاهير للانت إطاراتـه أو انفجرت ، لكن هـذه القوقعة الصغيرة المتحجرة لا يمكن أن تتغير لا بنتيجة عملها ولا بنتيجة رد فعل الآخرين . وهذا الموقف هو الذي يدفعه الى السعي من أجـل تحقيق تحالف مع الاشتراكيين على الصعيد البرلماني ، لأن مثل هذا التحالف يبرز أهميته دون أن يضطره الى تعديل بنيته ، في حين أنه بالمقابل لا يسعى الى تحالف على صعيد القاعدة ، لأن مثـل هذا التحالف سيرغمه على الانفتاح على الجماهير وعلى تغيير الحدود التي وضعها لنفسه واستبدل « منطقة انتقالية » بهـا ، غير محددة كل التحديد ، بحيث يندمج فيهـا الاشتراكيون والشيوعيون بدون تمايز .

وباختصار ، إن بنيـة الحزب الشيوعي الفرنسي تتناقض تناقضاً واضحاً مع سياسته ، فلا عجب بعد ذلك إن كانت هذه السياسه غير فعالة وغير واقعية .

وعلى كل فإن التحالف مـع الحزب الاشتراكي على صعيد

القيادة أو البرلمان مستحيل . إن أكثر الاشتراكيين عداء للشيوعيين هم البرلمانيون أو القياديون . لكن العامل الذي يصوت للاشتراكيين لا يتميز عن العامل الذي يصوت للشيوعيين. بل ان الكثيرين من العمال يصوتون للطرفين معاً . أفلم يؤن للمسؤولين الشيوعيين إذن أن يفهموا أن المجال الوحيد للتحالف هو مجال القاعدة ؟

إن الجبهة المتحدة هي أمل فرنسا الوحيد ، وأمل اليسار الفرنسي بالدرجة الأولى . لكن هذه الجبهة مستحيلة التحقق إلا إذا :

١ً – أن يكف الحزب الشيوعي الفرنسي عن اعتبار سياسة الاتحاد السوفياتي سياسته المطلقة. بالطبع من السخف أن نطالب الحزب الشيوعي بقطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، لكن من السخف أيضاً أن يخضع له بدون شروط وبدون تحفظ . لقد كان الاتحاد السوفياتي ، ايام ستالين ، هو «الحقيقة» : لكنه لم يعد كذلك اليوم. فلقد فضح المؤتمر العشرون بما فيه الكفاية اخطاء الستالينية وجرائمها . فكيف يمكن ان يطلب الاتحاد السوفياتي من حزب شقيق ألا يعترف بعصومية ستالين كما يعترف بها خروتشيف ؟ كذلك فإن الاتحاد السوفياتي ليس هو «الخطأ» : انه أمة تبني نفسها ، تتخبط في تناقضات الاشتراكية ، يرى زعماؤها احياناً الى ابعد مما نرى بكثير ، ويرون احياناً اقل منا . لقد زال عهد الحقائق المنزلة وكلمات الإنجيل : ان أي حزب شيوعي لا يستطيع ان يعيش في الغرب

اليوم إلا اذا حصل على حق الدراسة والفحص الحر .ولا يتكلمن احد عن التيتوية: فالحزب الشيوعي الفرنسي لا يملك بعد القدرة على اعتناقها . انما القضية قضية طرح مبدأ : ألا هو ان الحزب الشيوعي غير مسؤول إلا أمام الطبقة العاملة في وطنه . وينتج عن هذا المبدأ بالضرورة التزام الاتحاد السوفياتي بمعاملة الاحزاب الشيوعية الغربية معاملة الند للند .

٢ً — ان الجبهة المتحدة تظل غير قابلة للتحقيق ما دام الحزب الشيوعي يعاند في السعي اليها على صعيد القمة عن طريق تفاهم الكتل البرلمانية . ان الجبهة لن تتحقق الا عن طريق القاعدة ، هذا إذا شهدت النور ذات يوم . والحال ان البنية الحالية للحزب الشيوعي تحول دون انفتاحه على القاعدة . ولهذا يظل الشرط الأساسي تغير هذه البنية وتحولها الى بنية ديموقراطية فعلاً .

* * *

يختتم سارتر دراسته عن « شبح ستالين » بالعبارة التالية (عبارة تلخص موقفه وموقف « الأزمنة » الحديثة) :

« ها قد مضى اثنا عشر عاماً ونحن نتناقش مع الشيوعيين . بعنف في البداية، ثم بمودة. لكن هدفنا كان دوماً هو هو: ان نسهم بقوانا الضعيفة على تحقيق وحدة اليسار التي تستطيع وحدها ان تنقذ بلدنا . إننا اليوم نعود الى المعارضة : لسبب بسيط هو انه لا وجود لموقف آخر يتخذ . ان التحالف مع الحزب الشيوعي، كما هو الآن ، وكما يريد أن يبقى ، لن تكون له من نتيجة إلا

الإساءة الى آخر فرص « الجبهة الواحدة » . ان برنامجنا واضح: فمن خلال مئة تناقض ، ونزاعات داخلية ، ومجـازر ، بدأت سياسة تصفية الستالينية . انها السياسة الوحيدة الفعـــالة التي تخدم ، في الوقت الحاضر ، الاشتراكيـــة والسلام وتقارب الاحزاب العمالية ، وسنحاول ، بما نملكه من موارد ثقـــافية ، ومن خلال المثقفين الذين يقرؤوننا ، ان نساعد على تصفية الستالينية في الحزب الشيوعي الفرنسي » .

خاتمة

لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نتكلم عن سارتر من خلال ما كتبه هو . وبالطبع كان بمقدور هذه الدراسة أن تأتي أوسع وأشمل فيما لو أردنا أيضاً أن نفهم سارتر من خلال فهم الآخرين له . لقد كان بمقدورنا على سبيل المثال أن نعتمد على المذكرات المدهشة التي كتبتها سيمون دي بوفوار فنسد بالتالي جميع الثغرات التي قد تشكو منها هذه الدراسة ، وبخاصة في المرحلة السابقة لعام ١٩٣٩ وفي المرحلة التالية لعام ١٩٥٧ . لكن المنهج الذي اخترناه هو أن نحدد موقف سارتر من الماركسية من خلال آرائه هو ، وبذلك يمكن اعتبار هذه الدراسة تجميعاً وتلخيصاً لمعظم ما كتبه سارتر في الموضوع . وعلاوة على ذلك فقد كان قصدنا أن نقدم للقارىء العربي موجزاً لبعض دراسات لسارتر التي لم تترجم الى العربية وقد لا تترجم نظراً لارتباطها بأحداث تاريخية معينة فاتت مناسبتها .

لكن لا نستطيع أن نختم هذه الدراسة دون أن نبدي رأياً مجملاً – ولو سريعاً – في بعض مواقف سارتر .

أولاً – إن انتقادات سارتر للماركسية تظل الى حد ما انتقادات فردية ، نظراً الى أن سارتر لا يعمل في إطار حزب معين . إن السلبية حيناً والايجابية حيناً آخر ، اللتين يبديهما تجاه الشيوعيين ، تظلان ممكنتين ما دامتا لا تلزمان إلا شخصاً واحداً هو سارتر نفسه . ولعل هذا هو السبب في ما يصدر عن سارتر من تذبذب أحياناً بين السلبية والإيجابية .

ثانياً – إن سارتر هو ابن أوروبا . إن منظوره منظور أوروبي . وهذا شيء يعيه سارتر نفسه . فعندما يقول سارتر إن الحزب الشيوعي هو حزب البروليتاريا ، فهذه حقيقة لا تنطبق إلا على أوروبا أو على البلدان التي استطاع فيها الحزب الشيوعي أن يصبح فعلاً حزب البروليتاريا . لكن هل نستطيع أن نقول إن الأحزاب الشيوعية ، في آسيا وافريقيا على سبيل المثال، هي أحزاب البروليتاريا ؟ هل الحزب الشيوعي الجزائري على سبيل المثال هو حزب البروليتاريا الجزائرية ؟ بالطبع إن ما من أحد يستطيع أن يقول ذلك . إن البروليتاريا أولاً ما تزال طبقة فتية في البلدان الآسيوية – الافريقية . وطبقة الفلاحين في هذه البلدان هي حليف رئيسي للاشتراكية . والحال ان معظم الأحزاب الشيوعية في البلدان الآسيوية – الافريقية لم تستطع أن تستقطب الطبقات الفلاحية ، نظراً لأن هذه الأحزاب عاشت وتعيش على التجربة الأوروبية والتقاليد

الأوروبية .

ثالثاً – إن تكوين الأحزاب الشيوعية في الكثير من بلدان آسيا وافريقيا ليس تكويناً اشتراكياً ، أي ليس تكويناً عمالياً . ولنا خير دليل على ذلك الحزب الشيوعي في سورية ولبنان . إن هذا الحزب لم ينشر نفوذه في صفوف الطبقة العاملة العربية بقدر ما نشرها في صفوف الأقليات العنصرية والدينية . وصحيح ان هذه الأقليات قد تكون مضطهدة ، إلا أن هذا الاضطهاد ، بحكم كونها أقليات ، لا يدفعها الى الثورة بقدر ما يدفعها الى التمرد . إن المطلب الأساسي للأقليات هو أن تنال نفس حقوق الأكثرية . والحال ان مثل هذا المطلب لا يمكن أن يكون مطلباً ثورياً ، لأنه لا يتعدى أن يكون مطلب مساواة مع الأكثرية التي قد تكون هي نفسها مضطهدة ورازحة تحت نير الاستغلال .

رابعاً – ان الاحزاب الشيوعية في آسيا وافريقيا تستمد قوتها بالدرجة الأولى من العقيدة الماركسية بالذات . وإذا رأينا ان هذه الاحزاب تظل على قيد الحياة رغم اضطهادها احياناً ورغم انعزالها عن جماهير العمال والفلاحين احياناً اخرى ، فهذا راجع الى عقيدتها . وإذا كان سارتر يتصور ان حزب التاريخ الوحيد هو الحزب الشيوعي ، إلا ان الوضع في آسيا وافريقيا قد يختلف عن وضع اوروبا . ان الاحزاب الشيوعية في آسيا وافريقيا قد تفقد كل مبررات وجودها فيما لو وجدت احزاب اشتراكية ، تعرف كيف تصنع التاريخ ، وتعرف ان الاداة

الأولى لصنع هذا التاريخ هي الماركسية. ان الاحزاب الشيوعية في اوروبا هي احزاب البروليتاريا عملياً ونظرياً. اما في العالم الثالث، فإنها احزاب البروليتاريا نظرياً فقط، اما عملياً فإن الطبقات الكادحة ملتفة في كثير من بلدان هذا العالم حول احزاب اخرى. ولو عرفت هذه الاحزاب كيف تجرد الشيوعيين من سلاحهم الاول: الماركسية، فإنها ستصبح احزاب التاريخ عملياً ونظرياً. وآنذاك لا يبقى للاحزاب الشيوعية إلا مصيران: إما التلاشي والاضمحلال، وإما الاندماج بتلك الاحزاب التي عرفت كيف تحافظ على بنيتها الآسيوية – الافريقية، بنيتها الاصيلة، من خلال تحويلها العقيدة الماركسية بالذات الى عقيدة آسيوية – افريقية.

خامساً – لقد رأينا سارتر يقول ان الماركسية توقفت، ولهذا ظهرت الوجودية. لكن الوجودية باعتراف سارتر نفسه لا يمكن ان تزرق الماركسية بدم جديد الا على الصعيد الفكري وحده، على صعيد نظرية المعرفة. والحال ان الماركسية عقيدة سياسية ايضاً. وإذا كان البحث الوجودي يمكن ان ينقد الماركسية على صعيد الفكر والثقافة، لكنه لا يستطيع ان ينقدها على الصعيد السياسي، نظراً لأنه لا يعدو ان يكون بحثاً فردياً كما رأينا. ان الماركسية بحاجة اليوم الى لينين جديد. فكما ان لينين زرق الماركسية بدم جديد مكنها من ان تواجه متطلبات الوضع في روسيا المتخلفة وان تواجه في الوقت نفسه تحول الرأسمالية الى امبريالية، كذلك فإن الماركسية–اللينينية

التي تصلبت وانحصرت في اطار تجربة الاتحاد السوفياتي بحاجة اليوم الى ان تزرق بـدم جديـد يمكنها من معانقة مجمل حركة التاريخ في آسيا وإفريقيا . ومثل هذه المهمة انما تقع على عـاتق الاحزاب الآسيوية – الافريقية المناضلة . ان الماركسية الراهنة بحاجة الى هذه الاحزاب بقدر ما أن هذه الاحزاب بحاجـة اليهـا .

ان آسيا وافريقيا بحاجـة الى الاشتراكية اكثر من أي قارة اخرى . لكنها ستظل تتخبط في طريقها الى هـذه الاشتراكية ما دامت لا تهتدي بنور الماركسية ، التي هي فلسفة الاشتراكية الوحيدة ، وما دامت الماركسية الوحيدة التي تقدم اليهـا هي ماركسية الاحزاب الشيوعية المتحجرة المتيبسة .

ان جميع الدلائـل تشير الى ان البلدان المتخلفة هي الفرصة الوحيدة للثورة الاشتراكية ، وذلك بعـد ان عرفت الرأسمالية كيف تجمد الثورة الاشتراكية في البلدان المتطورة صناعيـاً ، وبعـد ظهور بوادر التحول البورجوازي في صفوف الطبقات العاملة الاوروبية . لكن لا ثورة ايضاً بدون نظرية ثورة . فهل ستعرف شعوب البلدان المتخلفة كيف تنقذ نفسها بإنقاذها الفرصة الوحيـدة المتبقية للثورة الاشتراكية وبإنقاذها في الوقت نفسه نظرية هذه الثورة ؟ إن مثال الثورة الكوبية يرجح ان يكون الجواب على هذا التساؤل ايجابياً ، وكذلك كتاب فرانز فانون المدهش « معذبو الارض » .[١]

---

١ ـ منشورات دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣ .

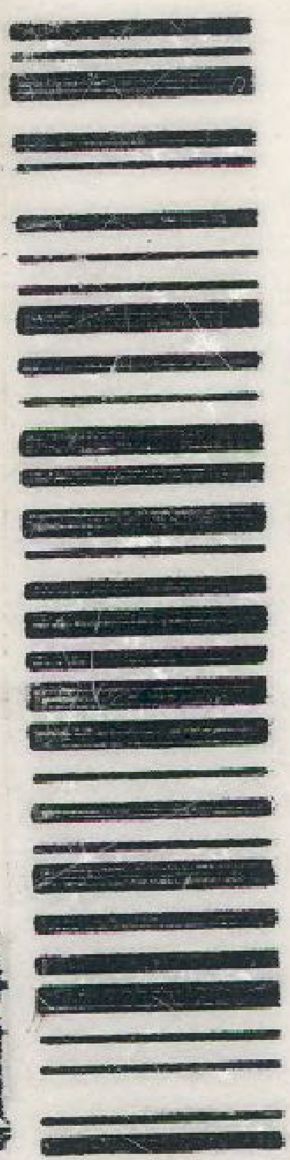
فهرست

يعتبر مؤلف كتابنا « سارتر والماركسية » ـ من بين الأدباء العرب ـ الأديب الألصق بفكر فرنسا الوجودي. فقد قرأه، بل عايشه، في نتاجه الفكري والسياسي والأدبي، حتى غدا مريده، يعيش في نتاجه، وينقل مختلف ألوان هذا النتاج الى لغتنا العربية.

وهو هنا، يقدم لنا التقابل الأخطر في حياة سارتر، مع الماركسية والماركسيين، فإذا لنا صفحات مشرقة عن موقف سارتر، والوجودية في ألوانها، من الماركسية بوجه عام، ومن الماركسيين المتحجرين بوجه خاص، وذلك عبر ستالين وثورة المجر ومواقف الحزب الشيوعي الفرنسي وغير ذلك من المواقف.

معلومات جديدة للقارىء العربي، تغطيها تحليلات نيّرة وأحكام صائبة، حول هذه المعركة القائمة بين أجنحة اليسار المتعددة، والمقررة لولادة العالم الثالث.

اقرأه! ففيه متعة وتنوير وفائدة.





الثمن: ٣٠٠ و.ل.
٣٧٥ ق.ل.

منشورات دار الطليعة ـ بيروت